20 me. année No 973

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

Le Caire 25-2-1952

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٧٣ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٢ — السنة العشرون

من مذكراتي اليومية

رسالة وصورة...

يحلو لى أن أهرب أحياناً من زمنى الحاضر لإثقاله أو إملاله ، فأرجع إلى ذكرياتى أجترُّ منهـا ما ألذ ، أو إلى مذكراتى أقرأ منها ما أحب

وفى هذه الساعة التى أكتب فيها الرسالة شعرت بضيق فى الصدر والفكر ، فألقيت بالقلم وقلت لنفسى : دعى الكتابة اليوم وتعالى نتفرج من هذا الهم برجعة إلى دنيا المـاضى ، فلعل فى أصدائها الباقية ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير قد عوّدنى الجميل فيما مضى من عمرى ؛ فقد سجلت فيـه أكثر ضحكات القلب ، وحسبى منها ميلاد ولدىَّ : رجاء والرسالة . ففتحت مذكراتى عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتنى قد كتبت فى يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

« أتى البريد الجوى إلىَّ فى صباح هذا اليوم غلافاً من العراق على ورقه طابع الذوق ، وعلى خطه سمة الظرف . فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصورة . قرأت الرسالة والإمضاء ، ثم تأملت الصورة والإهداء ، فإذا هما لآنسة من أوانس بغداد المثقفات ، قد أولعت بالأدب وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أتأمل . وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهى صورة الروح النبيل ، حتى غاب حسى فى سكرة من سكرات الأحلام ، تراءت لى فى خلالها أطياف من تهاويل الهوى والشباب ، تتراقص نشوى فى أزقة (الوزيرية) و (رأس القرية) من مغانى بغداد العزيزة وكلما عاد الحس أو كاد ، نظرت إلى الفم الحلو الذى يريد أن يبتسم ، وإلى الطرْف الأحور الذى يهم بأن يقول ، وإلى الشعر المندودن الفاحم الذى يسيل على الأذنين وأطراف الخدين فيجعل الوجه كله صورة من الفتنة ، فتعود إلىَّ الغفوة ، وأعود أنا إلى الحلم !

وأخيراً تخلصت قليلا من سحر الصورة لأرى صاحبتها الأديبة تقول أول ما تقول : «أعتذر إليك من الكتابة والاهداء على غير تعارف..» ولم يخل اعتذارها الصريح من احتجاج ضمنى على العرف الذى يفرق فى مثل هـذا الصنيع بين الرجـل والمرأة . فلو أنها كانت فتى كما تقول لما وجدت فى الكتابة إلى مثل ما يُعتذر منـه . ثم تحدثت طويلا عن صلتهـا بالرسالة وحرصهـا على أن تقرأ كل ما أكتب ؛ وخصت بالذكر رثائى للمرحوم على محمود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته . ثم طلبت إلىَّ آخر الأمر أن أخصص لتأبينه عدداً من (الرسالة) أكتب أكثره ! كل أولئك فى أسلوب رقيق دقيق يوحى أكثر مما يعبر ، ويمتع أكثر ممـا يقنع . ولم أكد أستوعب الرسالة بفكرى ، وأناقش موضوعها فى سرى ، حتى تناولت القـلم وفتحت الألبوم وأجبت عن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ! ولكن هيهات وا أسفاه ! لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ،

امرأتان عظيمتان
من دولة المغول

للدكتور محمد بهجت

عندما يطوف السائح بمدن لاهور وأكرا ودلهي بشمال الهند تتفتح أمامه صحف عديدة من تاريخ المغول المعظم ، حافلة بجلائل الأعمال وضروب البطولة ، ويلمح فى ثنايا تلك الصحف بعض السطور البارزة التى خطتها أنامل بعض نساء المغول فى تاريخ تلك البلاد المجيدة . ومن أبرز نساء تلك الدولة سيدتان عظيمتا الخطر ، ربطتهما وشيجة رحم وعاشتا فى عصر واحد . كانت كلتاهما زوجة لامبراطور ، رائعتى الجمال ، راجحتى العقل تانكم المرأتان هما « نور جاهان » « وممتاز محل »

أما نور جاهان فمن أصل فارسى ، ضاقت سبل العيش فى وجه أبيها — « مرزا غياث » — فأزمع الهجرة من طهران إلى الهند ، عسى الحظ يبسم له هناك . وفى الطريق ولدت له ابنة سماها « مهر النساء » . وكان مسافراً معه فى القافلة تاجر ثرى رقيق القلب اسمه « مالك مسعود » أخذته بهذه العائلة البائسة شفقة فتولاهم بعنايته ومعونته طول الطريق حتى بلغوا دلهى بسلام . وهناك أراد « مسعود » أن يسدى يداً أخرى لصديقه المسكين فقدمه للامبراطور « أكبر » العظيم الذى ألحقه بخدمته كما ألحق زوجه وبناته بالقصر مع حريمه . وبعد ما أبدى كفاءة وإخلاصا فى عمله أحبه الامبراطور وأدناه ورقاه

وفى أثناء ذلك نشأت « مهر النساء » وترعرعت بين نعيم القصر وأبهته ، وألفت حياة البذخ والترف . وما إن بلغت السابعة عشرة حتى زوجت من ضابط باسل بجيش الامبراطور اسمه « على كولى » . وكان هو الآخر فارسيا وسيم الطلعة ، قوى البنية ، خدم فى أول الأمر الشاه إسماعيل الثانى — شاه الفرس — بأن كان نادلا يقدم له صحائف الطعام . وسرعان ما جذبته الهند واستهوته مغامراتها فهاجر إليها والتحق بخدمة أكبر . وهناك برزت مواهبه فألحقه بأركان حرب ابنه الأمير « سليم » عندما خرج على رأس جيش كبير لإخضاع ولاية « ميوار » فأبدى من ضروب البسالة والشجاعة ما حبب فيه الأمير وقربه إليه ، وأجزل له العطايا والمنح ، وسماه « شر أفغان » أى قاتل النمر لأنه أردى نمراً متوحشا أمامه ، وأصبح علما له فيما بعد . وبعد انتهاء الحملة ، ولأمر ما ، شق الأمير عصا الطاعة على أبيه ومليكه فانفض أكثر الضباط المخلصين من حوله ومن بينهم «شرأفغان» ولما كان من عادة جنود المغول استصحاب نسائهم فى الحروب فربما عرضت للأمير فرصة لمح فيها زوجة صديقه الشابة الفاتنة . ويقول بعض الكتاب إنه رآها عدة مرات ترتع فى حدائق القصر وردهاته فأسرت فؤاده وسكن طيفها قلبه حتى آخر عمره

وسارت الأحداث سيرها إلى أن توفى « أكبر » واعتلى « سليم » عرش أبيه بعد حوادث دامية فى الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٦٠٥ وصار يعرف باسم نور الدين محمد وبكنيته « جاهان جير » أى القابض على ناصية العالم . وفى يوم ما تذكر صديقه القديم فاستدعاه وصفح عنه وأسند إليه منصبا كبيرا بعيداً بينغالة . وهنا تختلف رواية المؤرخين ، فبعضهم يقول إن حب « مهر النساء » استبد به وعصف بقلبه فأرسل إليها رسولا خاصا يغريها بهجر زوجها والالتحاق بالامبراطور المتيم بها ، فأبت كل الإباء ، وغضبت لهذه المساومة الدنيئة ، وكذلك ثار زوجها لشرفه ، فأوعز الرسول إلى الحاكم أن يقتاله ، فاقتتيل مدافعا عن كرامته وعرضه ، ثم حملت زوجه وابنتها الطفلة إلى العاصمة وألحقتا بجناح الملكة « سليمة » . والبعض الآخر من المؤرخين ينفى هذه الرواية بل يستنكرها بقوة قائلا ببراءة الامبراطور من هذه التهمة القذرة ، ويفسر ما حدث بأن الأخبار ترامت إلى الامبراطور بأن « شر أفغان » ثائر عليه باستدعائه إلى العاصمة ليشرح موقفه منه ، وليمتحن إخلاصه له ، فأبى . وعند ذلك أراد « قطب الدين كولا » حاكم بنغالة أن يقبض عليه فملأه « شر أفغان » بسيفه وأصابه بجراح بالغة ، وعند ذلك

ولن ترد صورة قبيحة على صورة (مليحة) »

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدرى أو لو يريد ! إن كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمة من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من سورة قانتة ، لتستطيع أن تنير ما أظلم من قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه ! إن السعادة فتات وفترات ، فلا تكون فى واحد صحيح ، ولا تدوم فى زمن متصل ! احمد حسن الزيات

انقض عليه حرسه وقطعوه بسيوفهم إربا . وهكذا فصل الموت بين ذينك القلبين المتحابين بعد ستة عشر عاما من زواج سعيد موفق

وفي شهر مايو من عام ١٦١١ أي بعد ست سنوات من اعتلاء « جاهان جير » العرش وبعد أربع سنوات من مقتل « شر أفغان » أعلن الامبراطور زواجه من « مهر النساء » بالغا من العمر اثنتين وأربعين سنة ، أما هي فكانت تصغره بتسع سنوات . وهكذا أصبحت الطفلة التي ولدت في الطريق من أب رقيق الحال ، والفتاة التي أوردها الحظ موارد النعيم ، والأرملة الشابة الفاتنة التي بكت زوجها الحبيب أربع سنوات ، إمبراطورة لدولة عظيمة ، وهكذا بدأت هذه المرأة الفذة تملي والتاريخ يكتب

نحن لا نعلم على وجه التحقيق كيف رضيت أن تتزوج من الامبراطور بعد طول إباء ، وأغلب الظن أنها توسمت فيه أداة المجد والشهرة ، ووسيلة لتحقيق مطامعها الواسعة . ولكن دلت كل الدلائل فيما بعد أنها أحبته وأخلصت له مثلما أحبت زوجها الأول وأخلصت له . أما هو فقد هام بها هياما شديدا وأخذ يغمرها بأجزل العطايا الثمينة ، ويغدق عليها أكثر ما يمكن أن يغدقه امبراطور عظيم على آسرة روحه ، ومصدر سعادته ، ثم إنه اشتط فأمر بنقش اسمها بجوار اسمه على النقود ، الشيء الذي ليس له نظير في التاريخ الإسلامي . وكان يدللها بأعذب الألفاظ وأرقها فسماها أولا « نور محل » غير أنه استقل ذلك فعدله إلى « نور جاهان » أي نور العالم ، وهو الاسم الذي عرفت به حتى الآن . وإذا علمنا أن « جاهان جير » كان رجلا فظا غليظ القلب ، سريع البادرة ، صريع الخمر ، لدهشنا كيف استطاعت هذه المرأة القديرة أن تسيطر عليه وتجعله طوع بنانها . فإذا ما انتابته نوبة من نوبات الغضب الجارف لم يجرؤ أحد أن يدنو منه سوى زوجته الحبيبة ، فتطفىء تلك النار الخبيثة التي تأكل روحه بلمسة رقيقة أو بسمة مشرقة أو كلمة عذبة ، فينقلب وادعا مستسلما ، فكانت بحق مروضته الوحيدة

ومن أهم مزاياها التي أسرت بها القلوب واستعبدت الرعية ، الكرم الحاتمي والعطف على الفقير الذي كانت له بمثابة الغيث ينزل على الأرض الجديبة فيحييها . لم ترد طالب رفد ، أو تخيب أمل قاصد . وكانت راعية الفتيات الفقيرات تزوجهن وتمهرهن وتيسر لهن العيش الكريم . وكم من ضعيف محته ، ومن مظلوم أنصفته وانتصفت وانتصرت له . ثم إنها شملت أقاربها بسامي رعايتها ، فجمعتهم حولها وأسندت إليهم المناصب العالية ، فأصبح والدها رئيسا للوزراء مع لقب اعتماد الدولة ، وأخوها آصف خان رئيسا لتشريفات الإمبراطور مع لقب اعتماد الدولة أيضا ، كما أصبح من أعظم رجال الدولة مالا وجاها .

وفضلا عن جمالها الساحر وأنوثتها الجارفة كانت « نورجاهان » شاعرة مجيدة ، رهيفة الحس ، واسعة الأفق والخيال ، مصقولة الذوق ، عالية الثقافة ، ملمة بالآداب الفارسية والعربية ، فكانت تهدهد الإمبراطور بشعرها العاطفي الرقيق ، وبمقطوعاتها العذبة المسكرة . وكانت تضع جميل الرسوم للمنسوجات ، وتبتكر الأزياء في الملابس والحلي بذوق رفيع نادر لم يعهد من قبل في بلاط الإمبراطور .

ومن عجب أن امرأة هذه بعض صفاتها تكون قوية البنية ، صلبة الخيزرانة ، مولعة بالألعاب الرياضية ، بل وفارسة من الطراز الأول ، تمتطي صهوات الجياد ، وتخوض المعارك بشجاعة نادرة وثبات عجيب ، فلا يطرف لها جفن ، أو يتزلزل لها جنان في أخطر المواقف وأحلك الملمات . وكثيرا ما وافقت زوجها في حفلات صيده ، وقتلت بعض النمور المفترسة أمام الامبراطور المعجب ، الذي لم يسعه إلا أن يهدي إليها سوارين من الماس النادر، وأن يأمر بتوزيع ألف كساء على الفقراء ، إعرابا عن فرط سروره ببطولة زوجته . وسوف تقف على المزيد من ضروب شجاعتها بعد قليل

وبجانب هذا كله استطاعت « نور جاهان » أن تدير شؤون الملك بيد حازمة ، وعقل راجح ، وعين يقظة ثاقبة ، تنفذ بها إلى بواطن الأمور ، وأعماق السرائر ، فلم تفتها شاردة ولا واردة من شؤون الدولة ، وأحاطت بجميع المسائل السياسية والعسكرية إحاطة تامة ، حتى تهيبها رجال السيف والقلم ، الذين لم يكونوا أندادا لمناقشتها ، فكانوا يأتمرون بأمرها واحكمين . أما أكابر البلاد وسراتها ، فكانوا يقدمون لها فروض الطاعة ، ويتفننون

مرضاتها ، علماً منهم بأن سعادتهم أو شقاءهم رهن بكلمة تخرج من بين شفتيها ، أو بإشارة عابرة من يدها ، حتى لقد قال عنها بعض المؤرخين : « إنها قوة من وراء العرش »

ولو أن الأمور اقتصرت على ذلك لختمت هذه المرأة حياتها خاتمة سعيدة ، ولتمت لها حياة راضية هنيئة لم تتم لامرأة أخرى . فقد كان إيثارها لأفراد أسرتها ومحاسيبها ، وخصهم بأرفع المناصب عاملا من العوامل التي أوغرت عليها بعض الصدور ، وباباً تسربت منه عوامل الفساد ، بما فيها الرشوة واستغلال النفوذ .

ثم إن مطامعها أملت عليها أن تضمن العرش لابنتها من زوجها الأول ، فكيف دبرت ذلك .

كان للامبراطور أربعة أبناء هم خسرو وكرام وبارفز وشهريار . فأيهم تختار ؟ كان خسرو ثائرا على أبيه ، واشتبك في عدة معارك دموية مع جيوش الامبراطورية ، ولكنه هزم في آخر الأمر ، وأسر ، وسملت عيناه ، وأودع السجن . ومع ذلك فقد كان محبوبا وله أنصار كثر . وأما كرام فقد فكرت فيه كثيرا ، وراقبته طويلا ، وأيدته إلى حين ، غير أنها عدلت عنه لما تبين لها من قوة شكيمته ، وشدة مراسه ، فضلا عن أن أخاها « آصف خان » سبقها إليه ، وزوجه من ابنته . وأما بارفز ، الوارث الشرعي للعرش ، فكان تافه الشخصية ، احتضنه « مهابت خان » ، القائد الكبير الذي ناصب « نور جاهان » العداء ، وأخذ ينصب حولها شباك المؤامرات . إذاً لم يبق أمامها سوى « شهريار » الذي زوجته من ابنتها في عام ١٦٢٢ وسندته بقوة ، وأخذت تدفعه قدما نحو العرش . ولننظر الآن كيف انتهى ذلك الصراع بين تلك المعسكرات الثلاثة

رق قلب الامبراطور لابنه السجين « خسرو » فأطلق سراحه ، ولما خافت « نور جاهان » مغبة ذلك أفسدت العلاقة بينه وبين أبيه الذي أمر بوضعه تحت يد قائده « مهابت خان » ليرى فيه رأيا ، ولكن الأخير سلمه بدوره إلى أخيه الأمير « كرام » الذي أمر بقتله فوضع بذلك حدا لآلامه ، ولتاريخه الحزن ، وتخلص من مزاحم له على العرش

ثم حدث أن استولى شاه الفرس « عباس » على قندهار ، فأمر الامبراطور ابنه البطل « كرام » (شاه جاهان) بالتوجه إليها واستردادها . ولكنه تردد بعد أن أبصر يد « نور جاهان » تقصيه عن طريق العرش وتمهدها « لشهريار » الذي طلبت من الامبراطور إسناد القيادة إليه ، كما طلبت منه أن يأمر « شاه جاهان » بإعادة القوات التي تحت إمرته إلى العاصمة . وبعد ما حاول عبثا أن يصلح ما بينه وبين أبيه ، وأن يخلصه من نفوذ زوجته الذي يوشك أن يقوض أركان الامبراطورية ، ثار عليه وهاجم أكرا عام ١٦٢٣ م ولكن هزمته جيوش أبيه تحت إشراف « نور جاهان » وبمساعدة أنصارها من الضباط القدماء ففر جنوبا إلى الدكن . وبعد محاولات عديدة فاشلة لاستثارة حكام الولايات ضد والده ، وبعد عدة مغامرات تبادله فيها الحظ والنحس ، وبعد معارك شديدة مع جيوش الامبراطورية التي كانت تطارده حيثما ذهب ، هزم في معركة فاصلة على يد أخيه الأمير « بارفز » « ومهابت خان » واستسلم لهما بعد أن هجره كثير من ضباطه وانحازوا إلى جانب قوات أبيه ، ونزل عن كل ما كان في قبضته من أراض وقلاع وحصون ، واضطر إلى كتابة خطاب لأبيه يعتذر عما فرط منه ، ويستعطفه ، ويطلب منه الصفح والغفران . وتأكيدا لحسن نواياه أرسل ابنيه « دارا » « وأورانك زيب » إلى دلهي رهينة ، كما أرسل لوالده هدايا ثمينة تقدر بنحو مائة ألف روبية . فصفح عنه والده بناء على نصيحة « نور جاهان » التي أوجست خيفة من تحالف الأمير « بارفز » « ومهابت خان » ثم اعتكف مع زوجه وابن له يسمى « مراد » في بلدة ناسك الصغيرة ، مرتقبا الفرص

بعد ذلك وقفت « نور جاهان » وجها لوجه أمام « مهابت خان » فاتهمته بالاختلاس واستغلال النفوذ ونشر الفساد وجرد صهره من ثروته ، ووجها بالسؤال : من أين لك هذا ؟ ثم صدر أمر الامبراطور إليه بالتخلي عن القيادة العليا للجيش ، وبتولي حكومة ولاية بنغالة . فأبدى الأمير « بارفز » استياءه العظيم واحتج عبثا على سوء معاملة القائد الأكبر الذي عيل صبره واشتم رائحة الغدر ، فاعتزم أمرا خطيرا وهرب في خمسة آلاف مقاتل من الراجبوت الأشداء ، وأخذ يقتفي أثر الامبراطور

فشاهده يعبر قنطرة على نهر « جهيلم » بعيدا عن حرسه ، فأطبق عليه وأسره . وكانت مفاجأة مؤلمة لمعسكر « جاهان جير » ووقع فيه اضطراب عظيم ، وهربت « نور جاهان » مع أخيها « آصف خان » الذى كان معها . ولكن عز عليها أن تتخلى عن زوجها فى محنته ، فدبت فيها النخوة والحمية والنجدة فكرت راجعة وحضت قائد الجيش « فدائى خان » الذى قام بهجوم عنيف لم يكتب له النجاح لفرار الضباط والجند ، ولحالة الفوضى التى كانت سائدة . وعندئذ تجلت شجاعة هذه المرأة العظيمة ، فامتطت ظهر فيلها المائل ، وتقدمت به على رأس من تبعها من الجند الذين دهشوا لجرأتها ، فهجمت على الأعداء هجمة صادقة وهى تمطرهم بوابل من السهام ، وحاولت فى تقدمها عبور النهر ، ولكن أسرع جنود « مهابت خان » إلى إشعال النار فى القنطرة ، فلم يثن ذلك عزمها واستطاعت أن تصل إلى الشاطئ فى وجه مقاومة عنيفة ، تتطاير السهام من حولها ، وتتفجر الكرات النارية حول هودجها . وهنا بلغ الروع أشده والفزع غايته ، وأخذت الخيل والأفيال والفرسان تساقط فى النهر وتداس وتعرك . ثم قتل سائق فيلها فجمح بها الفيل وغاص فى ماء النهر ، ولكنه بلغ بها الشاطئ مرة أخرى ، فاندفع نحوها النسوة بعوان ، والمخلصين من الجند والحاشية يدرأون عنها السهام والرماح بأجسامهم ، ويفدونها بأرواحهم . أما هى فجلست هادئة ، مخضوبة بالدم ، تنزع سهما أصيبت به حفيدتها من شهريار ، وتضمد جراحها هى . ولما رأت أن لا جدوى من المقاومة ، رضيت بالأسر مع زوجها ، عساها تستطيع إنقاذه .

أما أخوها فارتد بالثلاثة آلاف مقاتل الذين كانوا معهم واعتصموا بحصن قريب . وفى الأسر استخدمت أسلحة أخرى فعلت مالم تفعله أسلحة الحرب . استعانت بذكائها ودهائها وجمالها ... فاستمالت إليها ضباط « مهابت خان » ثم استولت على كنوزه ... ولما رأى ذلك نجا بنفسه وبنفر قليل من أنصاره وفر إلى الدكن حيث وافى « شاه جاهان » وتحالف معه على « نور جاهان » واستعجل القدر خاتمة الرواية فمات الأمير « بارفز » عام ١٦٢٦ م . أما الإمبراطور المسن فقد تابع سيره إلى كابل ثم عاد منها إلى كشمير لقضاء فصل الصيف . وفى أواخر عام ١٦٢٧ م . حينما كان عائدا من مصيفه بكشمير مرض مرضا شديدا ومات فى الطريق ببلدة « بهمبار » ومنها نقل جثمانه إلى حديقة « نور جاهان » المعروفة باسم حديقة « دلكوشا » بشاه دارا إحدى ضواحى مدينة لاهور . وهناك كانت « نور جاهان » بجانب نعش زوجها تبكيه بدموع غزار إلى أن ووری التراب ، وأمرت بإقامة ضريح فخم له . وبعد أن تمت مراسيم الدفن أعلن الأمير « شهريار » نفسه إمبراطورا فى لاهور ، تؤيده حماته ، وفى نفس الوقت طير « آصف خان » نبأ موت الامبراطور إلى صهره « شاه جهان » الذى كان بالدكن فأسرع نحو الشمال برفقة « مهابت خان » على رأس جيش كبير ليفوز بالعرش . وشغلا للعرش الشاغر بأكرا نصب « آصف خان » ابن خسرو (دوار بخش) إمبراطورا إلى حين وصول « شاه جاهان » ثم تقدم على رأس جيش قوى إلى لاهور . وهناك حاولت « نور جاهان » أن تتصل بأخيها لتستميله إلى جانبها ولكنه أعرض عنها وانقض على جيش شهريار وهزمه هزيمة منكرة وأسر « شهريار » وسملت عيناه ثم قتل بعد ذلك . ولما وصل « شاه جاهان » أعان آصف خان الامبراطور المؤقت على الهرب ؛ أما أتباعه وأتباع شهريار ونور جاهان فقتلوا شر قتلة ، وكان الإسراف فى القتل شديدا لدرجة ألجأت بعض نساء القصر إلى الانتحار . وهكذا سار « شاه جاهان » إلى العرش فى طريق مخضب بالدم مرصوف بالجماجم . وكان ذلك فى السادس من شهر فبراير عام ١٦٢٨ م

أما « نور جاهان » فلم تمس بسوء ، أو تمتهن كرامتها ، بل لقيت كريم الصفح ، وعظيم الاحترام والعطف ، وأجرى عليها الإمبراطور الحليم معاشاً سنوياً ضخما يضمن لها حياة كريمة. ولما رأت يديها خالية من زوجها الحبيب ، وصرح آمالها منهاراً أمامها ، والدنيا عنها مدبرة ، لبست الثياب البيضاء حداداً على زوجها ، واعتزلت الحياة العامة ، وزهدت فى مظاهر البذخ والأبهة ، وعاشت مع حفيدتها أرملة « شهريار » عيشة بسيطة إلى جانب قبر زوجها فى لاهور إلى أن ماتت فى الثامن من شهر ديسمبر عام ١٦٤٥ .

طافت برأسى قصة هذه المرأة العظيمة وأنا واقف بحديقتها

اللغة الفرنسية فى مصر

للأستاذ محمد محمود زيتون

اللغة الفرنسية — أو اللغة الأوربية الإضافية فى مصر هى العامل المساعد للاستعمار الإنجليزى فى الشرق ! فمنذ داعبت نابليون أحلام الامبراطورية الفرنسية ، شرع فى احتلال مصر وهى « تاج العلاء فى مفرق الشرق » كما يقول شاعر النيل

وتعاقدت إنجلترا وفرنسا سنة ١٨٩٠ ثم سنة ١٨٩٩ على اقتسام مناطق الاستعمار فيما بينهما بحيث تطلق إحداهما يد الأخرى فى الأمم المستضعفة تفعل بها ما تشاء ، فلما أعلنت إنجلترا الحماية على مصر سنة ١٩١٤ لم تشأ إلا أن تترك لفرنسا دوراً ثانويا فى مصر ، إذ جعلت لغتها إضافية إلى جانب الانجليزية المتيدة بينما خلا لفرنسا الجو فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش والمستعمرات الإفريقية

ومنذ يومئذ واللغة الفرنسية تؤدى دورها فى الحدود المرسومة، حتى تمكنت من جعل الزعماء أداة طيعة للاستعمار يستسيغونه فى يسر ويجترونه فى غير عناء ، وما كان ذلك ليكون لو أن الزعامة قائمة على رصيد شعبى

ومن الألاعيب الإنجليزية الفاجرة توزيع الاستعمار الثقافى بين اللغتين الإنجليزية والفرنسية بغية الفتنة ، ورجاء تحويل الأنظار عن التراث العربى والمجد الإسلامى ، وكأنما كتب على المصريين أن يتعلموا هاتين اللغتين ولا مفر من ذلك ؛ كما لا مفر من القضاء والقدر

غير أن القومية المصرية كانت قد تبلورت تماما ؛ فلما اصطرعت مع الاستعمار الفرنسى صمدت له، وردته فى قوة وإباء . وكان نابليون أول من فطن إلى هذه الحقيقة؛ إذ كتب فى تعليماته للقائد كليبر « إن من يكسب ثقة كبار المشايخ فى القاهرة يضمن ثقة الشعب المصرى » وكذلك بوسليج فى تقريره إلى الحكومة الفرنسية إذ يقول فيه « إن اختلاف العادات — وأهم منه اختلاف اللغة وخاصة اختلاف الدين — كل ذلك من العقبات التى لا يمكن تذليلها والتى تحول دون إيجاد صلات الود بيننا وبين المصريين .. »

فالدين واللغة والعادات فى مصر هى الأثافى الثلاث التى لم يستقر عليها قدر الاستعمار الفرنسى ، فانهار ولم يعد له قرار ، ولا سيما بعد إفلاس الحملة من كسب ثقة الشعب ممثلا فى « كبار المشايخ » وهم حماة الدين ، ودعاة اللغة ، ورعاة العادات ، وسدنة المقدرات القومية

وسجل التاريخ للشعب المصرى كفاحه ضد الاستعمار الإنجليزى فى المحافل الأوربية التى هزها الشاب المجاهد مصطفى كامل ، خطابة وكتابة ، فكان له « اللواء » الأعلى فى الدفاع عن القومية المصرية

أما « السعى بكافة الطرق السلمية المشروعة فى سبيل الاستقلال — كما أراد سعد زغلول — فإنه لم يدفع بالقضية إلى الأمام كما كان منتظرا بعد مصطفى كامل » بل أصيبت بنكسة مزمنة باضت جراثيمها وأفرخت فى أدمغة أذهلها الفراغ الفكرى من حدود (الوكالة) التى أجمعت عليها الأمة (الطيبة القلب) من أصحاب الجلاليب الزرقاء »

وفى سنة ١٩١٩ نهض زغلول فرفع مذكرة الوفد المصرى إلى المسيو فريسنييه رئيس مجلس الشيوخ الفرنسى يستصرخه فى

بشاهدارا بعد أن متعت نفسى بمشاهدة ضريح زوجها الرائع الذى قست عليه يد الإهمال ، وشوهت الكثير من محاسنه ، وسألت رائدنا عن ضريحها الذى توقعت أن يكون فى عظمة باقى آثار المغول . فأشار بيده إلى مكان قريب وقال إنه لا يستحق الزيارة لأنه من البساطة بحيث لا يلفت النظر أو يثير الاهتمام ، وقد أوصت بأن يكتب على قبرها شعر بالفارسية من نظمها معناه :

لا يكون على قبرى مصابيح أو أزهار ، حتى لا تحرق الفراشات أجنحتها ، وحتى لا تأتى البلابل لتغنى على الأزهار

(الكلام بقية) محمد بهجت

التحرر من الحماية الإنجليزية وجاء فى هذه المذكرة المعروفة :

« .. هل مصلحة فرنسا العامة يمكن أن تلزم حكومة الجمهورية بأن تتخلى كلية عن شعب مدنيته الحديثة ظاهرا عليها الروح الفرنسية ، عن شعب تربيته ونظامه الإدارى والقضائى يحمل الطابع الفرنسى ، عن شعب تشغل الآداب الفرنسية عنده المحل الأول كما يظهر ذلك لكل من يلاحظ ذوق الخاصة ، ومن يطلع على الآداب الوطنية

مهما يكن من أمر تلك المصالح التى تدفع حكومة الجمهورية للتنازل عما لفرنسا من السيادة الأدبية فى مصر ، يستحيل معها — حتى ولو كان ذلك من مصلحة الديمقراطية الفرنسية — أن تنكر فرنسا تعهداتها التى ارتبطت بها نحو الأمم الصغيرة.. »(١)

ماذا ؟ .. أهو دفاع عن استقلال أم اعتراف بانحلال ؟ .. وهل فى سبيل المجاملة العرجاء ، تزل قدم المحامى حتى يوقع موكله فى ورطة مزرية ، ؟ .. ومن أين لفرنسا هذه « السيادة الأدبية فى مصر » وذئابها الفاتكة قد يئست منها فعادت إلى بلادها جائعة تتلوى ؟

وليس أمعن فى الانحلال من الشعور بصعوبة التخلص منه والندم على الاستعمار كلما تقلص ظله ، فليتأمل كل مواطن بصير هذا الخطاب الذى وجهه زغلول مصر إلى المسيو موريس لونج مقرر اللجنة البرلمانية الفرنسية ، ومقرر المسألة المصرية لدى لجنة الصلح :

« .. إنه ليشق علينا أن نصدق أن الفرنسويين يقبلون عن طيبة خاطر أن ذلك الطابع المطبوعة به تربيتنا المدنية والعسكرية من قرن مضى تعفو آثاره عفاء تاما ، يشق علينا أن نصدق أنهم يقبلون أن القوانين الفرنسوية التى استمدت قوانيننا نصوصها منها . بيانت متأصلة فى نفوس المصريين وعوائدهم حتى أصبحت اليوم جزءا من رأس مالنا الاجتماعى ، ولا يكون لها أثر فى الأساس الذى تستند عليه مدنيتنا المصرية — وأن اللغة الفرنسوية الجميلة المنتشرة فى مصر أكثر من أى بلد أجنبى آخر ، والتى بات لزومها فى طبقاتنا المستنيرة لزوم لغتنا الخاصة نستعملها فى معيشتنا العائلية اليومية بالسهولة التى نستعملها فى حياتنا الأدبية يكون مصيرها إلى الزوال ، وإن دور التعليم المتنوعة الأشكال والتى أنشأتها فرنسا فى مصر والتى استوجبت منها بسببها عظيم الحمد وجزيل الشكر توصد أبوابها ، وإن الإرساليات التى نبعث بها إلى فرنسا ليرشف أبناؤها من منابعها الفياضة لبان المعارف والعلوم والفنون ينصرم حبلها

وصفوة القول أنه يعز علينا أن يرضى الفرنسويون بأن يوقف تيار النمو وهو بالغ منتهى سرعته فى الشركات الفرنسوية والبيوت التجارية والبنوك وغيرها بين ظهرانى أمة تحب فرنسا وتفضل كل ما هو فرنسى على جميع ما عداه

لا شك أن الشعب الفرنسى — وهو أشد الشعوب تمسكا بالكماليات وأحرصهم على صون مهمته التاريخية فى العالم — لا يمكن أن يغض الطرف بسهولة عن الامتيازات التى يضمنها له فى وادى النيل ماض مفعم بأحسن العلاقات ودا ، وأكثر المصالح انتشارا.. »(٢)

هذه هى الجناية على القومية المصرية باسم المطالبة برفع الحماية ، وإن المواطن اليقظان ليعجب كل العجب كيف أفلتت هذه الصفقة السياسية من الحراسة الشعبية ، وكيف جازت على المصريين حتى أسلمتهم « اليد الأمينة » إلى تجار الرقيق ، وسماسرة الاستعمار ، ولم يعد لهم من الحرية ما يمكنهم من نزع هذا النير الغليظ من أعناقهم الكليلة

وإن هذا الاستجداء هو الذى أطمع فرنسا فى استعمار مصر ثقافيا ، بعد أن عجزت عن احتلالها ، فلا أقل من أن تسير وفق الخطة الإنجليزية وهى استفراغ العقلية المصرية من مواهبها ومآثر تراثها ، فتوسلت إلى ذلك باللغة الفرنسية ، التى بلغ بها التواضع إلى أن قبلت السير فى الركاب الاستعمارى الأعزل ، وتظاهرت بالتساهل والتقرب إلى الناشئة فى الوقت الذى يشيع فيه الذعر والهلع من (البعبع) الأساسى ، وجعل

(١) محمود أبو الفتح : مع الوفد المصرى

(٢) مع الوفد المصرى : ١٩٧ ـ ١٩٨

للغة باريس ثلاثون درجة بحد أدنى قدره تسع درجات ، بينما جعل للغة التاميز خمسون بحد أدنى قدره عشرون

وبين يدي مجموعة وافية من امتحانات الثقافة العامة في مدى عشر سنوات ، وإلى القارئ أسوق هذه الملاحظات عليها :

١ — خلو الامتحان في بعض السنين خلوا تاما من دروس القواعد ، مما أدى إلى الاستهانة بها أثناء الدراسة باعتبار أن التلميذ — كما هو الواقع — لا يدرس إلا من أجل الامتحان فقط

٢ — تحول الامتحان من اختبار في المعلومات إلى اختبار في الأرقام ، فقد جاء في أحد الامتحانات سؤال : ما ارتفاع برج إيفل ؟ ومعنى ذلك أنه يجب حفظ رقم ثم التعبير عنه كتابة فهو امتحان لامتحان

٣ — الإيحاء بالبلادة الذهنية : وذلك بابتداع (الأرتوجراف) وخصم درجة عن كل ثلاثة أخطاء ، في حين تخصص للإنشاء ١٥ درجة ، ويحرص التلميذ عادة على حفظ نموذج له فينجح من غير تعب

٤ — تجاهل حدود المنهج أحيانا ووضع أسئلة خارجة مقررة على السنوات الأعلى ، وعدم مراعاة ذلك عند التصحيح

٥ — عدم تنويع الأسئلة ، والاكتفاء بجزء من المقرر ، للحظ في اجتيازه دور كبير ، وكان الأولى أن يستوعب الامتحان معظم الدروس المعطاة

وبالجملة فإن طريقة الامتحانات في اللغة الفرنسية على هذا الوجه تعمل على احتقار عقلية الناشئ ، وإهمال قواعد التربية ، وتحويل الامتحان إلى (ورقة يانصيب)

ودعائم التربية ثلاث : المعلم والمتعلم والعلم . أما المعلم فهو الوسيط بين طرفين ، وليس في الإمكان إهمال مهمته أو التغاضي من خطرها ، فلنتساءل : ما مؤهلات مدرسي هذه اللغة ؟

الواقع أن مدرس الفرنسية في مصر لا يخلو أن يكون أحد ثلاثة : أجنبي — أو مصري متخصص أو عضو بعثة — أو غير متخصص أو غير مؤهل . وهذا الصنف الأخير هو الغالبية الساحقة ، فإن الأجانب والمصريين الفنيين قلة لا تكفي ، فاستعين بالجامعيين من دارسي الفلسفة غالبا ، والكثرة كلها ممن لا يحملون مؤهلات دراسية ، ولا سبق لهم التدريس ، مما اضطر وزارة المعارف — إزاء نقص عدد المدرسين وكثرة عدد الفصول — إلى تعيين كتبة في المحاكم المختلطة ، وصيادلة ، وعمال شيكوريل وهانو وعمر أفندي ، وكثيرا ما حدث صدام بين طالب ومدرس لمجرد الشعور بالفارق في الشخصية والطريقة

ولست أخشى هذه الخطورة على اللغة الفرنسية بقدر خشيتي على الكرامة الفكرية للتلميذ وهو وديعة لدى الدولة ، فلماذا نفرض تدريس لغة ليس عندنا من يحسن أداءها ولا من يكفي لأدائها ؟ ولماذا تصر على تدريسها وزارة المعارف وفي مدارس الأقاليم فصل بحصتين اثنتين فلا تجد مدرسا فيحال تدريسها على أحد مدرسي اللغة الإنجليزية بالمدرسة أو ينتدب لها مدرس من أقصى المدينة ؟

وقامت الوزارة باستفتاء أولياء أمور التلاميذ في اختيار الإنجليزية أو الفرنسية في بدء الثالثة الابتدائية . ولكن الوزارة لم تستجب للرغبات . وتعثرت بين سياستين متضاربتين بين الإلغاء والإبقاء ، فألغيت اللغة الفرنسية من الأولى الثانوية ثم من الثانية ثم أعيدت ثم ألغيت ثم تقررت على الثانية الثانوية والزراعية وخصص لها حصتان بعد أربع ، وزيدت في الثالثة إلى خمس ، وألغيت نهائيا بعد الثانية زراعة

وقد أبيح في سنة ما دخول امتحان الدور الثاني ثم عدل عنه واعتبر الراسب في الفرنسية ناجحا ، ولم يعمل بذلك في الامتحانات الرسمية عند النزول بالمنهج إلى المستوى الأدنى ، فكانت الضحايا بالمئات حيث أعيدت الدراسة بسبب الرسوب في الفرنسية فقط فاضطر الطالب إلى اجترار كل المواد التي نجح فيها وإذا بالمنهج الفرنسي الجديد كان قد نجح فيه منذ عامين

وأدهى من ذلك أن بعض الفصول بمدارس البنات تشتمل على فريقين في دراسة اللغة الفرنسية : أحدهما يدرسها أساسيا

والآخر إضافيا . وقد يكون عدد طالبات الأساسية تلميذة واحدة تستنفد من وقت المدرسة سبع ساعات فى الأسبوع لها وحدها ، وقد تنتدب لهذه التلميذة معلمة فرنسية بماهية مضاعفة فى حين نشكو من قلة المدرسين والمدرسات للكثرة المتزايدة من التلاميذ والتلميذات

ونحن إذن نبنى البيت (بالباع والذراع) ، وندعى أن البيت قائم فى حين أن البناء الذى سيقيمه لم يوجد بعد ، ولم تحضر المواد اللازمة له يوم يوجد ، والسكان الذين سيشغلون البيت ، لم نرسم لهم خط المستقبل حتى نضمن رغبتهم فى سكنى البيت أو التحول إلى غيره

وليس يخفى على أحد هذا الفارق الشاسع بين الدراسة الثانوية والدراسة الجامعية عند الشعور بالضعف الشديد فى اللغة الفرنسية وهى من ألزم ما يلزم الطالب فى الآداب والحقوق والتجارة مع الاستغناء عنها تماما فى العلوم والطب والزراعة

وللغة الفرنسية — حقا وصدقا — مكانتها الرفيعة فى الثقافة العامة ، دليل ذلك أثرها الواضح فى نفوس المثقفين ، ولكن هذا التشتت الذى نضحى الناشئ بسببه وهو حائر بين الإنجليزية والفرنسية أدى إلى نتيجة لازمة حاتمة وهى ضياع الوقت سدى فى دراستهما معا ، وعدم جدوى هذه الدراسة عليه فى مستقبل ثقافته وتكوين شخصيته . وما ذلك إلا لأنه ليس للتعليم سياسة واضحة الأهداف ، مرسومة الوسائل ، مصطلح على وضعها ، وهذا ما سبق لنا القول فيه فى مقال « سياسة التعليم » (٣)

أما وقد مضينا بخطوات سريعة نحو الوعى القومى ، أرى الاقتصار على لغة أوروبية واحدة يترك حق اختيارها للمدرسة وولى أمر التلميذ ، وسيترتب على ذلك أولا إتقان هذه اللغة والاستزادة من آدابها وفنونها وعلومها فى أقرب وقت ممكن ، ولن يجدى ذلك إلا إذا سرحت الوزارة هذا الجيش العرمرم من غير الفنيين ، وإلا إذا رجعت إلى أصول التربية فى التدريس والامتحانات ، وعندئذ فقط يكتمل شعور المواطن الناشئ بكرامته القومية والفكرية ، ويتحقق لديه أمل التزود من ثقافة الغرب . حتى إذا طلب المزيد ، فالوسائل الخاصة لا تعوزه ولا تعجزه

محمد محمود زيتون

(٣) الرسالة : ٢٦ يونيو سنة ١٩٥٠

نصيب الســـودان
في ثقافتنا المدرسية
للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

لا أود أن أعتب في هذه الكلمة على الماضي ؛ فقد انقضى بخيره وشره ، ولكني أنبه إلى حاضر يختلف في طبيعته واتجاهاته ، وأشير إلى مستقبل قريب يتطلب منا العمل الحاسم السريع . أما الحاضر الذي اختلف ، فرد اختلافه إلى أننا قد نظرنا الآن إلى السودان نظرة جد وحزم ، أوضحت أمامنا المسالك ، بعد أن التوت علينا أزماناً . وأما المستقبل القريب ففيه الأمانة التي ارتهنت بها مصر لشباب الوادي جميعاً ، وهي تهدف من ورائها أن يرتبط الشعبان ، وأن يلتقيا معاً على الفهم الواضح الصحيح ، والمعرفة الوثيقة ؛ ليعيشا معاً في ظل الإخاء والوئام . ولا أحسبنا واصلين إلى ما نبتغي ، إلا إذا سعينا إلى هـذا المستقبل على علم صحيح بما في الجنوب من معالم وأحداث ، وثقافة وعادات ؛ ولهذا فقد رأيت عند أوبتي من السودان في ديسمبر الماضي ، أن أذكر وزارة المعارف بهذه الحقيقة ؛ لتأخذ الأهبة ، وتتحفز للعمل ، فبعثت إليها بتقرير ، أوضحت فيـه ما يجب أن تعمل حيال الاتجاه الجديد ؛ ولكني عدت تخشيت أن تطوى الوزارة هـذا التقرير فلا تفيد منه ، فيظل شباب الوادي في حيرة لا تنتهي ، ونظل كذلك بعيدين عن واقع الحياة الحاضرة وبوادر الحياة المستقبلة ؛ فرأيت أن أنشر على صفحات الرسالة الغراء بعضاً من هـذا التقرير ؛ لأنه — على ما أعتقـد — ضرورة يجب الأخذ بهـا في سرعة واهتمام :

أولا :

لا يزال الطلبة في مدارسنا المصرية يجهلون الضروري من أحوال السودان ؛ فهم لا يعرفون من تاريخه إلا القليـل ، ولا يدركون من طبيعته وتياراته السياسية وحياته الاجتماعية ، إلا صوراً ضئيلة باهتة لا تغني ولا تفيد .

هـذا هو منهج الجغرافيا ، لا يلقى على بلاد السودان ضوءاً واضحاً ، يبصر التلاميذ بما فيها ، وإنما هو إيجاز مخل ، لا يكاد الزمن يمضي عليه ، حتى يذهب من الأذهان ، لضآلة أثره وقلة غنائه . وهذا هو التاريخ ، وهو مصدرهم لتفهم الشعب وإدراك نزعاته ، لايتناول من أحداث السودان إلا القليل مما يأتي عرضاً ، على حين يعنى المنهج بدراسـة الحوادث في بعض الممالك الأجنبية دراسة تفصيلية . وهذه هي النصوص الأدبية لاتلم في أية مرحلة من مراحلها بأبيات لشاعر سوداني ، وفي هذا مافيه من غمط لحقوق شعراء طالما رددوا صوتهم عالياً بحب مصر والمصريين .

لقد حان إذاً أن تحقق المعارف رغبة كريمة ، طالما جاشت في صدور الكثير من المصريين والسودانيين ، فتولى الدراسات السودانيـة بالمدارس المصرية العناية اللائقة بهـا ؛ حتى يعرف الطالب المصري عن جنوب الوادي ما يدركه عن شماله ، وعندئذ فقط نتأكد الروابط ، وتشتد الصلات ، ونبلغ الغاية التي نصبو إليها من التئام الشعب ، وتوثيق العرى .

من الخير أن تنظر الآن في مناهج الجغرافيا والتاريخ والتربية الوطنية نظرة جديدة ، قوامها العناية بمـا في الجنوب من تراث وثقافة ونظم وشؤون . ومن الخير كذلك أن تنتظم النصوص الأدبية طرفاً من شعر التيجاني يوسف بشير ، والعباسي ، وأحمد صالح ، وعبد الله عبـد الرحمن وغيرهم ؛ فقـد جاهد الكثير منهم بإنتاجهم القيم في سبيـل الإنسانية والمروءة والوطنية ، وأصبح من حقهم علينا أن نمنى بأشعارهم اعترافاً منا بهذا الجميل .

ثانياً :

مما لا شك فيه أن الصحف مرآة تنعكس عليها صور الحياة الحاضرة ؛ فهي التي تحمل للقراء الآراء والاتجاهات ، وتوضح ما يجري في البلاد من أحداث . ومن المؤسف حقا أن القراء في الشمال قد تجاهلوا الصحف التي تصدر في الجنوب ، فخفي عليهم بعض أحواله الراهنـة ، وكان من الطبيعي أن يجهل الشبان المتعلمون بعض أخبار الجنوب وأحداثه . أقول ذلك وأنا أعلم أن صحف السودان لم تكتمل بعد نهضتها ، ولاتزال تجاهد في سبيل الرقي المنشود ، ولكنها على أي حال تلقى الكثير من الأضواء على

الحياة السودانية الحاضرة . ومن الواجب — إذا أردنا أن نبصر التلاميذ بما يجرى فى الجنوب — أن تشترك كل مدرسة ثانوية فى صحيفتين على الأقل من صحف السودان ؛ إحداهما معتدلة ، والأخرى من الجرائد الاتحادية ؛ ليطلع عليهما الطلبة ، أو تقوم الجماعة الأدبية فى المدرسة بتلخيص الأخبار المهمة فيهما ، وتسجيلها فى مجلة حائط ؛ لتكون قراءتها فى متناول الجميع .

ثالثاً :

لا يجهل السودانيون أن طائفة من علماء مصر وأدبائها ، قد عنوا بشؤون السودان؛ فألفوا فى بعض نواحيه كتباً قيمة ، ولا يجهلون كذلك أن بعض السودانيين قد طرقوا هذا الباب ؛ فأصدروا بعض الكتب فى السياسة ، واللغة السودانية العامية ، والتاريخ والأدب . ومن الواجب فى وقتنا الحاضر أن تتولى إحدى اللجان دراسة هذه الكتب جميعاً ؛ لتزود بالصالح منها مكتبات المدارس ، وستجد — ولا شك — من كتب إخواننا السودانيين طائفة تصلح للاطلاع الحر فى المدارس الثانوية ؛ ستجد كفاح جيل ، وديوان إشراقة، وديوان العباسى، والعربية فى السودان ، وتاريخ مكى شبيكة ، وشعراء السودان ، والطريق إلى البرلمان ، وغيرها من الكتب

رابعاً :

لست أريد الانتهاء من هذه الكلمة الموجزة قبل الإشارة إلى ناحية مهمة تتصل بالروابط الثقافية بين الشمال والجنوب ؛ فقد درجت المعارف فى العهد الأخير على إيفاد طائفة صالحة من العلماء والأدباء يلقون المحاضرات فى جنوب الوادى ، وهى سنة محمودة ، وخطة حكيمة تستحق التقدير ؛ فقد شهد الناس هناك ألواناً ممتازة من معالجة الموضوعات على اختلاف أنواعها فقابلوها بالشكران والتقدير ، وتأكدت بينهم وبين إخوانهم المحاضرين الصلات الثقافية والروحية

حدث هذا فعلا فى الخرطوم وأم درمان ، فأفاد منه أهل هاتين المدينتين ، ولكن سكان المدن الأخرى لم يسمعوا إلا تلخيصاً لعدد ضئيل من المحاضرات فى الإذاعة ، فكان لسماعهم لهذا التلخيص جانبان : جانب أسف ؛ لأنهم لم يجدوا من العناية ما وجده سكان المدينتين الكبيرتين ، ففاتهم الكثير من الفوائد . وجانب استبشار ؛ لأنهم أدركوا فى هذا التلخيص من الفوائد ما لم يدركوه من قبل ، وودوا جميعاً لو طوف هؤلاء المحاضرون فى المدن الكبيرة الأخرى كدنقلا وكسلا والأبيض وعطبرة ، يحملون إلى الناس هذه الثقافة العالية الممتازة . ودوا ذلك ويودون مستقبلا أن تتحقق رغبتهم ؛ لتتم الفائدة ويصيب منها القريب والبعيد

وبعد ؛ فهذا رأيى أدلى به ، موقناً أن الحاجة ماسة إليه فى وقت آمنا فيه وآمن الناس أن الشعب الذى يعيش على ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه شعب واحد يجب أن يلتقى تحت تاجه، ويتحد فى سياسته وثقافته ، وأرجو أن تبذل المعارف جهدها لتسهم — كما أسهمت من قبل — فى تحقيق ما تبقى لها نحو غايتها الكريمة

أحمد أبو بكر إبراهيم

الحسن البصري

رئيس المدرسة الفلسفية الأولى في الإسلام

للأستاذ حسين علي الداقوقي

لم تمض على تأسيس مدينة البصرة حقبة طويلة من الزمن حتى تسنى لها مناهضة مدينة الأبلة (١) القديمة والتغلب عليها من جميع النواحي المدنية حين نسي الكتاب ذكر ما في تلك المدينة من أحوال الحضارة ومعالم العمران. كما حدث على نفس الشاكلة تغلب الكوفة على الحاضرة طيسفون والسيطرة عليها

غدت البصرة ثغر العراق المزدهر، وميناءه المتطور الزاخر بصناعتها وزراعتها ونشاط تجارتها. وبضروب فعالياتها الفكرية. فقد أنجبت المشاهير من رجال الفكر الإسلامي، وقامت فيها المدارس العلمية والأدبية التي ضمت إليها هؤلاء المشاهير. نشأت فيها مدرسة النحو يوجهها الخليل بن أحمد، وظهرت فيها ألوان من الأدب تمثلت في كتابات ابن المقفع والجاحظ. وفي بيئة البصرة تثقف ابن الهيثم، وبشر واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام بمذهب الاعتزال. وألف إخوان الصفا جمعيتهم الفلسفية. وفي هذه البيئة أيضاً وضع أسس الصوفية كبار أعلامها مثل رابعة العدوية والحسن البصري وغيرهما ممن نبغوا في مختلف مجالات الفكر. ليست لدينا — ويا للأسف — وثائق تاريخية وصفية جمعها أنصار الحسن البصري وطلابه لنتبين منها تفاصيل سيرة الرجل، سوى نتف من ملاحظات، أو شتيت من المذكرات دونها عنه أعوانه أمثال قتادة وابن عون ويونس وأيوب، ومنتثرات من المعلومات تلقاها في كتب المحدثين مثل ابن سعد، وفي مصنفات المؤرخين والمفسرين كابن قتيبة والطبري، وفي كتابات المتكلمين كأبي عمرو الجاحظ (٢) وفي كتب المترجمين كأبي نعيم وغيرهما من المصنفات

(١) احتلها عتبة بن غزوان. وكان موقعها على رأس الخليج الفارسي. ولو صحت رواية البستاني صاحب دائرة المعارف بأن عتبة بن غزوان بنى البصرة على بعد أربعة فراسخ من مدينة الأبلة، ولو أخذنا المسافة التي قطعها الخليج الفارسي بالانسحاب نحو الوراء من زمن بناء البصرة حتى الوقت الحاضر لاستطعنا الحكم على أن موقع الأبلة كان في منطقة (المحورة) الحالية
راجع عنها مراصد الاطلاع لابن عبد الحق طبعة إيران، والطبري ٤ ج ص ١٥٠ ... ١٥١؛ وابن العبري في تاريخ مختصر الدول ص ١٧٤ وابن حوقل في كتاب صورة الأرض ص ٢٣٧

نشأته

ولد أبو سعيد الحسن بن يسار البصري بالمدينة عام ٥٢١ (٣) وكان أبو يسار في الأصل من سكان مدينة ميسان (٤) قرب البصرة. وقد سبي خلال عام ١٢ هـ إبان حملة خالد على العراق (٥) فنقل مع من نقل من ميسان إلى المدينة حاضرة العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وغدا هناك مولى لزيد بن ثابت الصحابي (٦) وكانت أمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي (ص) (٧) نشأ الحسن بوادي القرى (٨) وشب في كنف علي بن أبي طالب (٩)، وعمر (١٠) (؟) وتتلمذ على أنس بن مالك، والتقى سبعين من البدريين (١١)، كما أخذ عن حذيفة بن اليمان (١٢) وعمران بن حصين الخزاعي (١٣) وعاصر عدداً كبيراً من الصحابة فأرسل الحديث عن بعضهم وسمع من بعضهم (١٤)، وكان قد أظهر ذكاء لامعاً منذ صغره، فقد حفظ القرآن وهو دون سن الأربع عشرة سنة ثم كبر ولازم الجهاد ولازم العلم والعمل (١٥)

h Ziya Ulken islam Dusuncesi p 110
(٣) ... ابن سعد ٧ ج ص ١١٤
(٤) اسم كورة واسعة كبيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط، قصبتها ميسان (راجع معجم ياقوت وكتاب الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري. المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٧ هـ) وراجع
Le strange the lands of the Eastern Caliphate p. 43
وهناك صعوبة كبيرة في تثبيت موقع كل من (ميسان) (ومنار) لما في المراجع التي بين أيدينا من الاضطراب، ولكن يرجح أن موقع مدينة ميسان هو قرية (العزير) الحالية
(٥) انسكلوبديا الدين والأخلاق مادة الحسن البصري
(٦) انسكلوبيديا الاسلامية ، مادة الحسن البصري
(٧) ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٢ ج: طبعة الهند ١٣٢٥ هـ
(٨) ابن سعد ص ١١٤
(٩) الزركلي: الأعلام مادة الحسن البصري
(١٠) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣ ج ص ١٥٣
(١١) ابن النديم: الفهرست ص ١٨٣ طبعة Flugel
(١٢) المكي: قوت القلوب ٢ ج ص ٨٨
(١٣) جواشون: فلسفة ابن سينا ص ٩ ترجمة رمضان لاوند (دار العلم للملايين)
(١٤) ابن الجوزي: المرجع السابق ص ١٥٩
(١٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١ ج ص ٦٧ الطبعة الثانية

استقر الحسن فى الأبلة (١٦)، فالبصرة حيث كان المركز الثقافى الإسلامى خلال العهد الأموى (١٧). وفى عام ٣٥ هـ شد الرحال إلى المدينة، وعندما عاد إلى البصرة فى غضون سنى ٣٧ — ٤١ هـ تعقب المناقشات التى احتدمت بين أصحاب الرسول واحتكم فيها. واشترك فى الجهاد لحارب فى جبهة كابل؛ وبعدما رجع من الجهاد عارض خلافة يزيد، واجتلب نحوه الأنظار (١٨) عما أوتى من حدة الذكاء وحسن البيان، ومهابة وجمال فى خلقه وخلقه، فوقع من أنفسهم أسنى مقام وأجل موقع

اشتغل الحسن موظفا عند الأمويين؛ فكتب للربيع بن زياد والى خرسان فى عهد معاوية (١٩). وتقلد منصب القضاء فى البصرة مدة من الزمن إبان خلافة عمر الثانى، ثم استقال منها (٢٠) ولم يأخذ على قضائه أجرا (٢١). واعتكف فى أحد مساجد البصرة يقوم بالوعظ والإرشاد والتدريس والتوجيه، ويشارك غيره فى كثير من الفعاليات الأخرى كما سوف نرى

حياته السياسية:

يبدو للانسان أن القدرية كانت أول مدرسة فلسفية فى الإسلام، وأنها كانت قد اقترنت (أكثر مما انطبعت) بفلسفة سياسية فى ذلك العصر. بحيث أنها بدأت تمدو عن كونها فلسفة مجردة، مطلقة، غاية لنفسها، وأخذت تهدف إلى ارتياد العقل، وتحرر الفكر وإعطائه قيمته الحقة، وبالتالى مقاومة السلطة الحكومية آنذاك. فحمل ذلك الأمويين على التنكيل بأنصارها والفتك بروحها، فذهب عدد غير يسير من نوابغ ذلك العصر ضحايا هذا الاضطهاد السياسى. أذكر منهم عمر المقصوص أستاذ الخليفةمعاوية الثانى حين وثب عليه بنو أمية وقالوا: أنت أفسدته وعلمته، فطمروه ودفنوه حيا (٢٢) »

(٦ .) ابن سعد: نفس المصدر

Nicholson A literary history of the Arabs p 222

h Ziya op Cft pp — —

(١٩) تهذيب التهذيب لابن حجر ص ٢٦٣

h,Ziya Mid

(٢١) راجع ابن سعد فى الطبقات ٧ ج وحلية الأولياء لأبى نعيم

(٢٢) ابن العبرى: نفس المصدر ص١٩١ وكتاب المعتزلة لزهدى حسن جاد الله القاهرة ١٩٤٧ ص ٣٤ ... ٣٥

كذلك انصبت نقمة الاضطهاد على نابغة آخر من معاشرى الحسن البصرى وهو معبد الجهنى، على أنه جاهر بالقدر فى مدينة البصرة، فأذاقه الحجاج الوالى الأموى مر العذاب ثم قتله بطلب من عبد الملك بن مروان (٢٣). وكان معبد من السابقين فى القول بالقدر، يذكر عنه الذهبى بأنه كان قدريا وتابعيا صدوقا (٢٤) قتله الحجاج عندما اشترك فى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث. وقد كان كذلك غيلان الدمشقى قدريا وخطيبا مصقعا فأمر هشام بن عبد الملك بقطع يديه ورجليه (٢٥) ومثل به وصلب على باب دمشق (٢٦)

وهناك نصوص تاريخية كثيرة تثبت قدرية الحسن.. فيقول المقريزى: إن معبد الجهنى وعطاء بن يسار سألا الحسن البصرى « إن هؤلاء — يريدان الأمويين — يسفكون الدماء ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله » فقال الحسن « كذب أعداء الله » فانهم الحسن بهذا ومثله (٢٧) لم يكن الحسن يحمل العقيدة مجردة عن العمل، ولم يأل جهدا فى الدفاع عن مبدئه والإفصاح عن آرائه بشجاعة، وقد أمضى حياته يصارع مشاكل شتى دون أن يكترث لها مع أنه كان بمقدوره، أن ينال العز والجاه والرغد والرفاه. فالمتصفح لكتاب أبى نعيم (حلية الأولياء ٢ج) يجد أنه قد ترفع عن هبات الأمويين، وأبدى شجاعة منقطعة النظير فى رد المظالم، تارة بتبيان وخامة العاقبة وطورا بالتنديد بالروادع الدينية، ولم يستهدف من ذلك غير الإصلاح الاجتماعى العام، فرفعه ذلك إلى موضع التقدير والإجلال لدى أغلبية الجماهير

ذكر الشهرستانى (٢٨) وكثير غيره بأن الحسن اتهم بالقول فى القدر، والحقيقة أنه كان كذلك، بل إنه كان رئيس القدرية (٢٩)، ورأس حرية الارادة، والأكثر من ذلك أنه

(٢٣) المقريزى: الخطط ٤ج ص ١٨

(٢٤) الذهبى: ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ٣ ج ص ١٨٣

(٢٥) ابن نباتة: سرح العيون ص ١٠٧ ... ١٠٨

(٢٦) ابن قتيبة: المعارف ص ١٦٦

(٢٧) المقريزى: الخطط ٤ ج ص ١٨١ ... ١٨٢

(٢٨) الشهرستانى: الملل والنحل ص ٣٢ طبع ليدن

(٢٩) القمى: الكنى والالقاب ٢ ج ص ٧٥. مطبعة العرفان رصيدا ١٣٥٨ هـ

جهر بمخالفته استخلاف يزيد بن معاوية (٣٠) من دون أن يتخوف عاقبة الأمر، على حين أن الشعبي وابن سيرين لم يجرءوا على إبداء رأيهما بصراحة (٣١). وكان من أهم أسس عقيدته السياسية اتباع الأصول الإسلامية الأولى، ومعارضته الخلافة الأموية الوراثية، والاعتقاد بمبدأ الانتخاب للخلافة (٣٢)، بيد أنه لأسباب لم نتحقق منها تماماً، رفض الاشتراك بثورة ابن الأشعث عام ٨١ — ٨٢ هـ، بالرغم من المظالم التي كان يقترفها الحجاج، وبالرغم من اشتراك زملائه بها كعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير، ولعل ذلك كان بسبب اعتقاده الجازم بعدم نجاح الثورة، أو أنه ما كان يسوغ الحرب وسفك الدماء بين الإسلام مهما كانت أسبابها الموجبة، وذلك للصلة الوثيقة بين تصوفه وآرائه السياسية، إذ لم تكن أية حركة من حركاته أو فعالية من فعالياته من قبيل الصدفة والعرض. ومع العلم أنه كان ضد سياسة الحجاج إلا أنه لم يقم بأية حركة ثورية أو عصيان مسلح ضده؛ لأن الإسلام عند الحسن واحد ووحدة، وأن هذه الوحدة تستند إلى وحدة الحق والإيمان، وأن كل حركة ينجم عنها التصدع في هذه الوحدة، وإن كان مبعثها الحق فهي ليست بأسلوب صحيح يركن إليه ويتوسل به

والمعروف عن الحسن البصري أنه غدا بين ٨٦ — ٩٥ هـ موضع ريبة موظفي الحجاج الذين صاروا يتحرون دقائق أعماله ويترقبون تصرفاته؛ حتى اضطر إلى الاختفاء والتواري عن الأنظار. وفي عام ٩٩ هـ تقلد منصب القضاء في عهد عمر الثاني ثم استقال منه. وفي ١٠١ هـ انتقد بلهجة لاذعة في إحدى مواعظه الشهيرة حركة ابن المهلب التي قامت ضد الأمويين (٣٣) غير أنه لم يسلم في سلوكه هذا من التهجم عليه خلال حياته، فذكر عنه أنه كان يلقي الناس بأهوائهم ويتصنع الرياسة. ويروى عن تلميذه ابن أبي المرجاء أنه لما قيل له لم تركت صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؟ قال إن صاحبي كان مخلطاً، كان يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر، وما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه(٣٤) ويقول عنه تلميذه أيوب السختياني أن انفصال الحسن من القدرية كان خوفاً من السلطة الحاكمة، وأن عدم اشتراكه مع ابن الأشعث في الثورة كان خوفاً من أن تذهب عنه وظيفته الموجهة إليه. كذلك انتقده ابن سيرين لأنه يرد الكبيرة ولا يرى الخلود في النار أبداً (٣٥)

هذا ولم يكن الحسن في عقيدته السياسية مكافحاً من نوع صاحب الزنج في الثورة على النظام الاجتماعي، ولا مثل جان دارك في الدفاع عن استقلال الوطن، إنما كان أقرب مثيل إلى البابا بيوس التاسع في بعض جوانب تصرفاته، وبأبي العلاء المعري في جوانب أخرى. وكان في عصره من هذه الناحية نسيج وحده.. ويرجح أن كفاحه كان محدداً بحدود صوفية معينة، وباعتبارات دينية واجتماعية أخرى تمسك بأهدابها، وجهد في السير على مقتضاها. وقد أوصى ابنه عبد الله أن يحرق كتبه ففعل ما أوصاه به والده (٣٦)، لذلك لم يرد لنا منه إلا النزر اليسير الذي ذكرناه فأشكل على الباحث تحقيق أمره، ولم يوف في التدقيق منه حقه، فنستميح القارئ الكريم عما يبدو من المقال من سطحية وضآلة مادة، فعسى أن نكون به حافزين. وداعين إلى دراسة طرف من أطراف التراث الإسلامي أو شخصية من شخصياته، لم تتكشف حقائقه مفصلة سافرة على ضوء المباحث القائمة على المنهج التاريخي العلمي الحديث

لبحت سلة حسين علي الداقوقي

(٣٠) دائرة المعارف الإسلامية مادة الحسن البصري وفجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٨

(٣١) أحمد أمين: نفس المصدر ونفس الصفحة

(٣٢) انسكلوبيديا البريطانية مادة الحسن البصري

b ZiYa Uliken op cit

(٣٤) القمي: الكنى والألقاب ٢ ج ص ٧٥

h, ZiYa Uliken op cit

(٣٦) ابن سعد في الطبقات

بين شاكر وقطب :

لا تسبوا أصحابي

للأستاذ محمد رجب البيومي

للأستاذ محمود محمد شاكر منزلة كبيرة لدى ، فأنا أعهده كاتبا قوى الأسلوب ، رصين العبارة ، وأعرفه أبيا مخلصا يتدفق غيرة على الإسلام ، وتعصبا لأفذاذه الأبطال ، لذلك أقبل على قراءة ما يدبجه يراعه المؤمن فى شوق واهتمام . وقد طالعت أخيرا ما كتبه بمجلة (المسلمون — العدد الثالث ص ٣٨ جمادى الأولى سنة ١٣٧١) تحت عنوان لا تسبوا أصحابى ، فوجدت المجال واسعا للخلاف بينى وبينه ، ولم أشأ أن أطوى ما دار بخلدى عن القراء ، فرأيت أن أناقش الكاتب الكبير فيما سطره راجيا أن يحق الله الحق بكلمته ، فالحق وحده هدف الكرام الكاتبين ، وفى طليعتهم الأستاذ الجليل

ولعل من الأوفق أن أبدأ بتلخيص الفكرة التى يدور حولها مقال الأستاذ شاكر ، فأعلن أن الكاتب الفاضل ينحى باللائمة على المجاهد الداعية الأستاذ سيد قطب — وإن لم يصرح باسمه — إذ تعرض فى كتابه « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » إلى أناس عدهم الأستاذ شاكر من أفاضل الصحابة ، وقد خصهم صاحب الكتاب بما لا يليق فى مذهب الأستاذ شاكر من النقد والتجريح ، وهو بذلك يخالف ما اجتمع عليه الرأى السائد من تقديس أصحاب الرسول « إذ لا سبيل لأحد من أهل الأرض ماضيهم وحاضرهم أن يلحق أقل أصحاب محمد ، مهما جهد فى عبادته ومهما تورع فى دينه ، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء فى سره وعلانيته ، كما قال الأستاذ الجليل

وقد بدأ الأستاذ شاكر مقاله بحديث الرسول « لا تسبوا أصحابى ، فو الذى نفسى بيده ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » واندفع فى سياق منبرى يسرد الأدلة الخطابية ، ويستثير النوازع العاطفية ، ويستشهد بقول الرسول « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » كما ذكر حديثاً يدور حول هذا المعنى ، محاولا أن يؤيد بذلك كله دعواه الخطيرة إلى تقديس أناس بعدوا عن الحق فيما سجله عليهم التاريخ من أعمال . ومما نحمد الله عليه أن الحق — فى هذه الناحية — واضح أبلج لا يحتاج إلى برهان

وقبل أن نعرض ما ذكره الأستاذ قطب فى شأن معاوية وأصحابه ، نذكر أن الأستاذ شاكر قد أثار هذه العاصفة وحجته الوحيدة ، أن كل صحابى رأى الرسول وسمع عنه قد اكتسب مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطاءه أو يظهر أغلاطه ، « فإذا أخطأ أحدهم فليس يحل لهم ولا لأحد ممن بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلى الطعن عليهم » … كما ذكر الكاتب

وحسما للنزاع من أقرب طرقه ، نبدأ بتحديد معنى الصحابى ، وهو — فى أبسط حدوده — يطلق على كل إنسان حصلت له رؤية الرسول أو مجالسته ، فجميع من سعدوا بمشاهدته صلى الله عليه وسلم فى حياته بعد الإسلام صحابة يشرفون بهذه الصفة المباركة ، حتى عبد الله بن أبى رأس النفاق بالمدينة ، فقد قال الرسول لمن هم بقتله : « معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، فعبد الله من أصحاب محمد كما ينطق الحديث ، فليت شعرى أينطبق الحديث القائل لا تسبوا أصحابى على جميع من سعد بالصحبة ، أم يخص من باعوا أرواحهم وأموالهم لله من المؤمنين الصادقين ؟ لابد أن تكون الطائفة الأخيرة هى المقصودة دون أدنى تردد أو نزاع ، فكل من تمسك بأخلاق الإسلام من أصحاب الرسول وشهد تاريخه بمروءته وصدقه فهو موضع التجلة والتبجيل ، ولا يجوز لمسلم يدين بالإسلام أن ينتقصه فى شىء ، وكل من حامت الشبهات فوق تاريخه فهو موضع الملامة والنقد لأن الناس سواسية أمام الإسلام ، ولا فضل لعربى على أعجمى بغير تقواه ، والإسلام لا يقدس غير البررة المخلصين

ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا من الدين والجهاد بمنزلة واحدة ، ففيهم من أسلم فى فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول وقطع السنوات المتتابعة فى الجهاد والجلاد ، وفيهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده والسيف مصلت على رأسه ، وفيهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر القليل ، وفيهم من تقاعس ولم يبذل شيئاً من دمه وماله ، ومن الظلم البين أن نرتفع بهؤلاء

جميعاً إلى منزلة واحدة ، بل على التاريخ أن يهيىء لكل إنسان منزلته وفق ما أسلف من أعمال « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » ٩٥ النساء

وإذا كان الأستاذ شاكر يرى أنه لا يجوز لأحد من الناس أو من الصحابة أن يجعل الخطأ ذريعة إلى الطعن فى المخطئين ، فماذا يفعل فى الصحابة إذ أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن ، فخطأ بعضهم بعضاً ، وطعن فريق منهم على فريق آخر يناوئه ، أفيكونون بذلك قد خالفوا الحديث النبوى كما فهمه الأستاذ شاكر .. أم عرفوا أن الصحبة وحدها لا تعصم من النقد والملام ؟

لقد اتضح بجلاء أن الحديث الذى عنون به الأستاذ مقاله لا يندرج على جميع من سعد بالصحبة ، بل يختص الطائفة الفاضلة التى لم تترك أخلاق القرآن فى موقف ، أو تنبذ روح النبوة فى صنيع ، وجميع من سار على النهج القويم كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود موضع القدوة والاحتذاء من المسلمين ، وحرام على كل مؤمن أن يحوم على أحد منهم بطعن أو تجريح ، أما الذين تأخر بهم الركب عن اللحاق بالإسلام فى مشرق شمسه ، فيجب أن ننظر إلى صحف أعمالهم ومواقفهم فى الحياة ثم نحكم عليها فى ضوء القرآن والنبوة ، وهذا ما فعله الأستاذ سيد قطب ، فقد نظر إلى أعمال معاوية وطائفة من بنى أمية نظرة إسلامية صادقة ، فوجد خليفة المسلمين قد بعد عن روح الإسلام فى أكثر أعماله ، وساعده فى هذا السبيل فريق باع آخرته بدنياه ، فرأى أن يقول كلمة الحق فى أناس تجاوزوا حدود الله فى أعمالهم ، والأستاذ قطب لم يرد بكتابه أن يكون مؤرخاً راوياً ، فالرسالة التى يضطلع بها الآن أعظم من أن تنحصر فى حدود التاريخ ، ولكنه ينادى بالرجوع إلى أحكام القرآن ، وهدى النبوة ، وتعاليم الإسلام ، وقد عرف أن الخلافة الإسلامية قد فقدت معناها الدينى بعد مصرع على ، وجاء من الخلفاء من أحالها إلى ملك عضوض ، تبعد عنه روح الإسلام فى أكثر نواحيه ، وقد ظن كثير من الناس أن هؤلاء الخلفاء الرسميين من لدن معاوية يمثلون الخلافة الدينية التى تتقيد بالقرآن وتهتدى بالسماء ، ورأوا من جرائمهم الخلقية ، وترفهم المقيت ، ولهوهم الماجن ما يبغضهم فى الخلافة والإسلام ، فقام الأستاذ سيد قطب يدافع عن دينه ، ويبين أن الإسلام لا يعترف بخلافة بعد على ، وقد نطق بالحق المؤيد بالتاريخ حين أعلن أن معاوية أول خليفة تحلل من قيود الإسلام ، أفنقول له بعد ذلك لقد تهجمت على أصحاب الرسول وخالفت هدى النبوة ، أم يريد الأستاذ شاكر أن يفهم الناس أن معاوية وأشياعه يمثلون الإسلام بما ارتكبوه من رشوة وخداع وممالأة ؟ لو أن الأمر كذلك لبعد الناس عن الإسلام ، ولبرىء المسلمون من دين يبيح لخلفائه الخديعة والمكر والإرهاب وإقامة القصور واحتكار الأموال والضياع ؟

ولقد كان الأحرى بالأستاذ شاكر أن ينقد ما ذكره الأستاذ قطب عن معاوية نقداً تاريخياً فيبين أن الوقائع التى ذكرها فى كتابه الخالد غير صحيحة ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك ، إذ أن الأستاذ قطب قد نقل وقائعه عن كتب التاريخ ولم يخترعها من عنده اختراعاً ، وهى - رغم ثورة الأستاذ شاكر - معروفة لدى الكبير والصغير

فمن ذا الذى ينكر أن معاوية حين صير الخلافة ملكاً عضوضاً فى بنى أمية لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية

ومن الذى ينكر أن أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها ! وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح والملابسات ! ! وهذا باستثناء عمر بن عبد العزيز الذى أحاطه الأستاذ قطب فى كتابه بسياج من المحبة والإجلال ، وجعل عهده بقية من عهود الخلافة الراشدة ، وإشعاعة مضيئة تنير الطريق ، وقد بسط الكلام عن هذا الخليفة العظيم فى أربع صفحات طوال ! !

ومن الذى ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه على المسلمين مدفوعا إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؟

ومن الذى ينكر أن معاوية قد أقصى العنصر الأخلاقى فى صراعه مع على وفى سيرته فى الحكم بعد ذلك إقصاء كاملا ، لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، وقد سار فى سياسة المال سيرة غير عادلة ، فجعله للرشوة واللهى وشراء الضمائر فى البيعة ليزيد

بجانب مطالب الدولة والفتوح بطبيعة الحال

هذه وأمثالها أمور مسلمة فى التاريخ لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال . ونحن نعجب كثيرا حين نجده فى مقاله يلبس مسوح الوعظ والإرشاد فيقول : يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم . يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . أفبهذه الآيات وأمثالها يستطيع الأستاذ شاكر أن يسكت لسان التاريخ

كنا ننتظر من الأستاذ أن ينقد هذه الحوادث التاريخية نقداً موضوعيا يحدد على ضوئه موقف معاوية من تعاليم الإسلام! ولكن الأستاذ لا يستطيع أن يأتى لمعاوية بتاريخ جديد فذهب يدافع عنه من باب آخر ، فنقل عدة روايات تدل على أنه حسن الصلاة ! ! وأنه أوتر بواحدة ! فقال ابن عباس إنه فقيه ! ! وأن الرسول قد قال : اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب !! وسارق هذا المضمار خطوات أتعبته كثيرا . والعجيب أنه يجمل ما ذكره الأستاذ قطب عن تاريخ معاوية روايات متلقفة من أطراف الكتب ! وهى ما تنطق به جميع كتب التاريخ ، أما ما ذكره الآن من فضائل معاوية فليس من قبيل الروايات المصنوعة ، وإن اصطيد من مجمع الزوائد وأمثاله من مراجع الأستاذ ، أفهذا منطق يقنع الباحثين !

وقد تعجبت كثيرا وأنا أقرأ قول الأستاذ شاكر عن قطب « إن كان يعلم أنه أحسن نظرا ومعرفة بقريش من أبى بكر حين ولى يزيد بن أبى سفيان وهو من بنى أمية ، وأنه أنفذ بصرا من عمر حين ولى معاوية فهو ما علم ! » كأن تولية عمر لمعاوية كافية لأن تمحو أخطاءه فلا يأخذه مؤرخ بملام ! ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة على عهد عمر فولاه أعمال دمشق ، ولكنه قلب المجن للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان فلم تنفعه تزكية الفاروق فى شىء ، وعمر رضى الله عنه لا يعلم الغيب حتى تكون تزكيته لإنسان ما فى عهده ممتدة إلى جميع أعماله مدى الحياة !

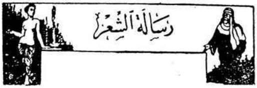
هذا هو معاوية ، أما أبو سفيان وهند زوجه وعمرو ابن العاص فلا أعلم أن الأستاذ قطب قد تجاوز الحق فيما كتب عنهم من تاريخ !! فجميع المسلمين يعرفون أن أبا سفيان حارب الإسلام حربا لا هوادة فيها ، ولم يدخل فى حظيرته إلا بعد أن تقررت غلبة الإسلام ! وأن زوجه هند قد ولغت فى الدم حين أخذت كبد حمزة بين فكيها ، ولاكتها لتأكلها فلم تستطع ، وأنها قالت من زوجها حين أسلم : اقتلوا الخبيث الدنس الذى لاخير فيه ، قبح من طليعة قوم، هلا قاتلتم ودافعتم عن أموالكم؟ ثم أسلمت بعد ذلك أيضا ! ! وأن ابن العاص قد عاون معاوية فى خصامه مع على جريا وراء مآرب يدخرها لنفسه دون نظر إلى صالح الإسلام والمسلمين !! هذا كله ما ذكرته كتب التاريخ ، أفيلام الأستاذ قطب إذا ذكره فى معرض الدفاع عن الإسلام وتبرئته من آثام المذنبين ، أم يريد الأستاذ شاكر أن يؤخذ الإسلام بجرم أبنائه ومدعيه ، حين يحتضن أناساً لم يتمسكوا بأهدابه وقواعده ، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا فى ذلك الشأن

ولقد تعمدت أن أكون واضحاً صريحاً حين تكلمت عن المراد « بالصحابى » فتحدثت عما يفهم من مادة الكلمة دون نظر إلى ما دار حولها من اختلاف لدى الأصوليين ، إذ هم يذكرون عدة تعاريف تتقارب وتتباعد دون أن تلتقى فى ناحية واحدة ، ولو تمسك كل إنسان بتعريف معين لتضارب القول ، واتسعت شقة الخلاف ! على أن الصحبة بمدلولها اللغوى تدل على الملازمة ، فصاحبك هو الذى يطيل المكث معك أكثر من سواه ، وصحابة الرسول بالمعنى الشرعى واللغوى معاً هم أكثر الناس ملازمة له ، وليس منهم معاوية وأبوه وأمه ونجله على أى حال ، ولن أطيل هنا القول فيما ذكره المحدثون فى قول الرسول خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم — وقد سبق فى صدر هذا المقال — إذ أن مفسرى الحديث قد أجمعوا على أن العبرة بالمجموع لا بالجميع ، فقد يوجد فى القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم وإذن فليس للأستاذ شاكر أن يتمسك — بهذا وأمثاله — كدليل يستند إليه فى دعواه ، وهو من البداهة بمكان لا يحتمل الترديد والإسهاب

إن من القسوة العنيفة أن يقول قائل عن الأستاذ سيد قطب إنه قد بعد فى كتابه عن منهج الإسلام ، وهو الداعية البصير الذى تشرب روح الإسلام ، وفهم دقائق التشريع ، ورسم خطوطاً واضحة يترسمها الشباب المتوثب للنهوض والعزة فى ظلال الدين الحنيف ، وكان بجهاده الميمون رائد جيل ، ومنقذ نفوس ، وداعية إصلاح

أعلمت أشرف أو أجل من الذى ... يبنى وينشئ أنفساً وعقولا

محمد رجب البيومى



اللحن الثائر

للشاعر السوداني محي الدين فارس

إلى أخي في الشمال .. !
إلى أخي في الجنوب .. !
إلى كل وطني حر آمن بالنور .. وكفر بالظلام .. !
إلى موكب الحرية الحمراء أزجي هذا اللحن الثائر .

يا شرق . يا محراب آمالي ، وأحلامي وفني . .
في ليلك الباكي نسجت ملاحمي وملأت دني . .
وسكبت خمري للظماء هناك في الليل الدجي
الغازلين من الدموع غلائل القصر الأغن !

* * *

الكادحين هناك في الليل المحجب بالغيوم
الشاربين مرارة الأيام في السجن القيم
الفأس في يدهم نشيد هز أسماع النجوم
غرسوا النعيم .. وما جنوا منه سوى خمر الجحيم !

* *

يا شرق يا مهد الحضارة والثقافة والفنون
يا حانة الأرواح تجري كوثر الخلد الرزين
عبرتك شتى الفلسفات وأنت مثواها الأمين
تسمو على مر الدهور فشل تاجك لا يهون

* * *

إن فاخروا بشريعة الغابات في جنح الليالي
وهناك في السودان . في الوادي المقدس في القنال
سنعب من دمهم ونحملهم على نعش الزوال
ونطهر الوادي من الأصنام، من عبث الضلال
سنظل نشدو محاريب الهوى لحن الإخاء
سنظل نعلي بالكفاح الحر ألوية السماء
سنظل نعصف كالرياح الهوج في ركب الفداء
حتى يؤوب إلى دجى الأدغال في ذل الإماء

* *

يا أمس يا دنيا المواجع والشقاوة والألم
يا مسرح الزمن الخؤون المنتشي بدم الرمم !
وليت ملعون الخطى وغفوت في حضن العدم
وغدت تهيل عليك ليل الموت أجنحة العدم

* * *

الوعي يقظان وقافلة الحياة على الدروب
هتكت حجاب الليل بالنور المجنح في القلوب
فبدا لها الهدف البعيد يرف كالشط القريب
فهفت إليه .. كالفراش .. إلى ينابيع الطيوب

* * *

قد آن للفجر المجنح أن يضوئ للنور
قد آن للفجر الموشح بالوضاءة والزهور
أن يملأ الوادي بألحان الخلود وبالحبور
بمواكب البشرى تهز مسامع الأبد الكبير

محي الدين فارس

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

عميد الأدباء في الهواء الطلق

قضى في الوزارة عامين قدم فيهما العلم إلى جيل بأكمله من الناشئين، ويسر مصاعب الحياة لجمع كبير من خيار المواطنين هم الأساتذة والمربون، ولقي هو في سبيل ذلك من المتاعب والعناء ما لا ثمن له عند مثله إلا انتعاش النفس لما ينال المجموع من خير

كان طه حسين قبل أن يلي الوزارة كاتبا يبدي الرأي ويدعو إلى العمل، ثم ولي الوزارة فأشفقنا عليه مما كتب، إذ خشينا أن يكون من العوامين على البر، وإذا هو في البحر يضرب أمواجه بذراعي جبار. كان طه حسين الكاتب الناقد رقيبا على طه حسين الوزير العامل.. ويخيل إلى أن الوزير كان يخشى في نفسه الكاتب ويفرق منه أشد الفرق حين أوغل في القسوة على نفسه ومنع تقرير كتبه في المدارس وكان كثير منها مقررا من قبل

يكتب طه حسين ويحاضر فينفع الناس، ويتولى المناصب فينفع الناس، حتى حين يقصد إلى شيء من الترويح عن نفسه بالسفر إلى الخارج نراه وراء العالم سفير مصر الأدبي ونديد الأساطين في إشعاع الفكر فينفع الناس

قال لي مرة وقد أقبلت عليه لأزود منه بحديث لقراء «الرسالة»: أتريد حديثا يطرف القراء أم تريد كلام جد؟ قلت له: أريد حديثا يطرف القراء! فابتسم، ثم تحدث إلى فلم يكن في حديثه غير الصدق وغير الإمتاع.. فحين قلت له ما قلت كنت أعلم أن كل ما يقوله طه حسين طريف لا يخرج عن الجد والصدق، وكل ما يجد فيه من القول لا يتجرد من الطرفة والإمتاع

إن من خصائص عميدنا الاندماج الكلي فيما يتعرض له، وقد اندمج هذين العامين في التيسير على المتعلمين والمعلمين، ولم يعبأ بقلة «الاكسوجين» في هواء الوزارة، ثم ترك الوزارة فأحس بهبوب الهواء الطلق على نفسه، وسنده يشبع رئتيه من هذا الهواء، ندعه قليلا لنتوقع منه بعد ذلك الكثير...

الثقافة تنتقل إلى المتخلفين:

أنشئت الجامعة الشعبية كي تتيح الفرص لمن تخلفوا عن قطار التعليم في إحدى المحطات.. ومدت يدها إليهم تعينهم على السير واللحاق بالركب. ومضت بهم قليلا وهم فرحون بانتسابهم إلى الجامعة، ثم هب عليهم غبار من نوع معوقاتهم الأولى. إذ قيل: جامعة! وما الفرق إذن بين الجامعيين وبين الشعبيين؟ حتى الاسم استكثروه عليهم.. فليكن اسمها «مؤسسة الثقافة الشعبية» كما أطلق عليها منذ سنوات

لا يهم الاسم ما دامت القافلة تسير، وقطعت القافلة أشواطا وأخيرا تلفتت.. قطعت أشواطا عن جاءوا إليها، ولكن هل هؤلاء كل من فاتهم القطار؟ تلفتت تنظر فإذا محطات التخلف لا تزال عامرة، فما كل من فيها يستطيع أن يقصد إلى المراكز الثقافية، وقد يستطيع ولكنه يتكاسل

فكرت المؤسسة في أمر هذه الآلاف المتخلفة القاعدة، فرأت أن تنتقل هي إليهم في قراهم بالأقاليم وفي أحيائهم بالمدن. فوضعت مشروعا لذلك يعتمد على وسيلتين:

الأولى مكتبات متنقلة تحملها سيارات تعد إعدادا خاصا بحيث تصبح — بفتح بابها حيثما وقفت — مكتبة مفتوحة، فيستعير منها من يشاء لقاء «تأمين» زهيد لا يبلغ نصف ثمن الكتاب، وقد تغرى المستعير قلة ما يدفعه ويروق في عينيه الكتاب.. وليكن، وتحتمل المؤسسة الفرق بين الثمن والتأمين في سبيل تأدية الرسالة الثقافية..

وتستمد المكتبات الطوافة من مكتبات مركزية تقام في قواعد تختار لها، وتؤدي هي أيضا رسالتها كمكتبة عامة في مكانها، وتحمل المكتبات الطوافة إلى كل جهة ما يناسبها من الكتب، وتصحبها آلات للعرض السينمائي الثقافي لتكون وسيلة إلى اجتذاب الجمهور، إلى جانب الغرض الأساسي من موضوعها

أما الوسيلة الثانية فهي كتب دورية (شهرية أو أسبوعية أو غير ذلك على قدر الإمكان) تعهد المؤسسة فى تأليفها الى مؤلفين من غير موظفيها تكلفهم بتأليفها فى موضوعات حيوية على أن يقصد بهذه الموضوعات إما تنمية المعلومات الثقافية العامة، أو الإرشاد والتوجيه فى ناحية من نواحى الحياة العملية، وتوزع هذه الكتب على من يطلبها بثمن إسمى يغرى بطلبها

ذلك هو مشروع مؤسسة الثقافة الشعبية التى تريد أن تنقل به الثقافة إلى الناس فى بيوتهم وفى مقار أعمالهم والذى يشتغل الآن بوضع خطه الأستاذ على عزت الأنصارى بك المدير العام للمؤسسة

الى رفعة على ماهر باشا

وأريد أن أسوق الحديث بعد ذلك عن الموضوع السابق إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس الوزراء:

قرأنا ما أدليتم به إلى الصحف فى الماضى من أنكم توجهون اهتماماً كبيراً إلى مسألة التربية الشعبية، التى هى القاعدة الرئيسية للعمل المنتج والصالح لخير البلد وأهله، والتى تبعث فى كل شخص روح الكبرياء القومى ... إلى أن قلتم إنكم أصدرتم إلى محطة الإذاعة اللاسلكية المصرية تعليمات مشددة بأن تساهم بنصيب كبير فى تربية الذوق السليم وإنماء الروح المعنوية القوية

ليس هذا جديداً علينا منكم يا رفعة الباشا، فنحن نذكر جهودكم فى إنماء الثقافة فى مختلف العهود التى توليتم فيها الوزارة، نذكر من تلك الجهود ماقمتم به فى سنة ٩٣٧ — على ما أذكر — من تنظيم المسابقات للنشيد القومى، وللكتابة فى موضوعات أدبية فكرية كرسالة الجامعة والأزهر وغيرهما فى القرن العشرين

فنحن إذن نعلم أنكم مؤمنون كل الإيمان بأثر الثقافة فى التربية الشعبية، ولعلكم ترون الموضوع الذى عرضته قبل هذا، وخاصة ما تقترحه مؤسسة الثقافة الشعبية من إصدار كتب دورية يمكن اتخاذه وسيلة إلى التربية الشعبية التى توجهون إليها عنايتكم، فلا تكون المسألة قاصرة على الإذاعة، بل تتناول هذه المؤلفات التى تفكر المؤسسة فى موضوعها، فتولونها عنايتكم وإرشادكم لكى تقوم بنصيبها فى تحقيق هذا الغرض

الإعداد للمؤتمر الثقافى الثالث

كان المؤتمر الثقافى العربى الثانى الذى انعقد بالإسكندرية فى صيف سنة ٩٥٠ — قد قرر ان تؤلف لجنة برياسة معالى الدكتور طه حسين باشا ... بصفته الشخصية ... للاعداد للمؤتمر الثقافى العربى الثالث، وكان معاليه قد تحدث فى ختام ذلك المؤتمر إلى الوفود العربية محيياً لهم معتذراً من تقصير مصر فى إكرامهم، معرباً

كشكول الأسبوع

أوشكت لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية على الفراغ من فحص الإنتاج الأدبى المقدم لمسابقة سنة ١٩٥١ــ١٩٥٢ وهو سبعة دواوين واثنتا عشرة قصة وبحثان وكتابان محققان، وينتظر أن تعلن نتيجة هذه المسابقة قريبا .

▫ فى الوزارة الماهرية القائمة أربعة وزراء أولاد مشايخ، اثنان منهم ولدا شيخين سابقين للأزهر وهما محمد عبد الخالق حسونة باشا وزير المعارف وأحمد مرتضى المراغى بك وزير الداخلية، والآخران ولدا شيخين من كبار العلماء وهما سعد اللبان بك وزير الأوقاف وزكي بك عبد المتعال وزير المالية

▫ قال الأستاذ «ماسينيون» فى مؤتمر المجمع اللغوى «إن أعمال المجمع تدرس فى معهد تخريج مدرسى اللغة العربية فى فرنسا»، ومما يؤسف له أن هذه الأعمال لا تظفر بمثل هذا الاهتمام فى أى معهد بمصر .. ولعل للمجمع يدا فى هذا التقصير، لأنه لم يقم إلى الآن بطبع هذه الأعمال ونشرها لتكون فى متناول الجميع . وقد وصلت إلى فرنسا عن طريق الأستاذ ماسينيون التى طلبها من المجمع فأمده بها

▫ أصدرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية كتابا جديدا من آثار المغفور له أحمد تيمور باشا، عنوانه «الآثار النبوية» ويتناول فيه المؤلف العلامة — بالدرس والتحقيق — آثارا اشتهرت نسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وتداولها الناس دون أن يميز أكثرهم صحيحها من زائفها، مثل القضيب والبردة والنعل والسرير والخاتم والعمامة والسيف وغير ذلك

▫ وافقت لجنة الشؤون التشريعية بمجلس النواب على مشروع القانون الخاص بحماية حق المؤلف

عن رغبته فى أن يكون اجتماع المؤتمر الثالث بمصر أيضاً كى تستطيع أن تقوم بما ينبغى عليها نحو أبناء الشقيقات

ومنذ أسابيع أخذ معالى الدكتور طه حسين باشا فى العمل وإعداد ماينبغى لتنظيم المؤتمر الثالث ، ثم استقالت الوزارة السالفة وجاءت الوزارة الحالية التى ولى فيها وزارة المعارف معالى الأستاذ محمد عبد الخالق حسونة باشا ، فكتب إلى معالى الدكتور طه حسين باشا ليمضى فى الإعداد المؤتمر

واستأنف العميد العمل فى هذا السبيل ، فدعا اللجنة التى ألفت للإعداد المؤتمر إلى الاجتماع ، فاجتمعت يوم السبت بدار مجمع فؤاد الأول للغة العربية برياسة معاليه ، وحضرها مندوبو مصر وباقى الدول العربية ، وهم الأستاذ محمد سعيد العريان والدكتور سليمان حزين بك (عن مصر) والدكتور بديع شريف (عن العراق) والدكتور مدحت جمعة بك (عن المملكة الأردنية) والأستاذ مدحت فتفت (عن لبنان) والدكتور زكى المحاسنى (عن سوريا) والسيد على الآنسى (عن اليمن) ، ولم يحضر مندوب المملكة السعودية ، ومثل الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية الأستاذان سعيد فهيم وعلى عبده

ونظرت اللجنة فى الزمان والمكان اللذين يجتمع فيهما المؤتمر ، وتناول البحث الوقت الصالح لمجئ الوفود إلى مصر من حيث ملاءمة الجو ، فتقرر أن ينعقد المؤتمر بدار الجمعية الجغرافية فى القاهرة فى الأسبوع الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وهو وقت ملائم من عدة وجوه ، منها أنه أوان العمل والنشاط فى المعاهد والهيئات الثقافية وغيرها ، ويستطيع الضيوف أن يطلعوا على مختلف النواحى وتنظم لهم الرحلات إلى هنا وهناك فيطالعوا أوجه النشاط المختلفة فى أحسن أحوالها

ونظرت اللجنة بعد ذلك فى الموضوعات التى قرر المؤتمر الثانى أن تكون موضع دراسة المؤتمر الثالث ، وهى — بعد أن نظمتها وصفتها اللجنة الثقافية التى عقدت فى الصيف الماضى بالاسكندرية : —

١ — طبع التعليم فى مختلف البلاد العربية بالطابع القومى الذى يقوم على خصائص الثقافة العربية وخير ما فى الثقافات الغربية . وقد تقرر تكوين لجنة من الأساتذة سعيد العريان وبديع شريف ومدحت فتفت والملحق الثقافى بمفوضية المملكة الأردنية — لبحث مناهج التعليم والكتب الدراسية المقررة فى الدول الأعضاء لمواد اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية لبيان مدى ملاءمتها لتحقيق الغرض من هذا الموضوع وهو طبع التعليم بالطابع القومى .. الخ ، وبيان صلة ذلك بما قرر المؤتمر الثقافى العربي الأول من القدر المشترك الواجب تدريسه لكل تلميذ من تلاميذ البلاد العربية فى هذه المواد . ولوحظ فى أثناء بحث هذا الموضوع أن مصر فى الوقت الحاضر بصدد وضع مناهج جديدة تطبيقا لقوانين التعليم الأخيرة ، وفى ضوء ما يسفر عنه تقرير اللجنة بعد استيفاء وسائل الاتصال بوزارات المعارف يكون بحث المؤتمر فى هذه المسألة

٢ — تحقيق الوحدة اللغوية فى المجتمع العربى حتى تصبح اللغة الفصحى لغة العلم والحياة معاً ، ورؤى أن هذا الموضوع يستحق أن يلقى فيه بعض الأعضاء بحثاً يتتبع فيه مدى رقى الفصحى فى البلاد العربية وتطورها تبعاً لانتشار التعليم ، مع القصد إلى بحث موضوع تيسير تعليم العربية فى ضوء المشروع الذى أعده مجمع فؤاد الأول للغة العربية من نحو عشر سنوات لتيسير تعليم قواعد العربية

٣ — نشر الثقافة بين الكبار . تألفت لجنة لهذا الموضوع من الأساتذة سعيد العريان وبديع شريف وزكى المحاسنى ، واقترح معالى الرئيس أن ينضم إليها الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك باعتبار تخصصه وتجربته فى هذا الموضوع

٤ — تعميم التعليم الأساسى كوسيلة من وسائل مكافحة الأمية ، وقد رؤى إرجاء النظر فى هذا الموضوع إلى أن تتبين نتائج التجارب المختلفة التى تجريها فيه « اليونسكو » بمصر

٥ — بحث موضوع الكتاب المدرسى : يدخل بعض هذا الموضوع فى نطاق البحث الذى تقوم به اللجنة المؤلفة للموضوع الأول

٦ — النظر فى مدى تنفيذ ما اتخذ فى المؤتمرين السابقين من قرارات ، وسيدلى كل وفد من وفود الدول الأعضاء بموقف وزارة المعارف فى بلاده من هذه القرارات

وستوالى اللجان التى ألفت لبحث بعض موضوعات المؤتمر اجتماعاتها على أن تفرغ من عملها قبل أول مايو القادم ، ثم تجتمع اللجنة الإعدادية للنظر فى أعمال اللجان الفرعية

عباس خضر



السنوسية دين ودولة

تأليف: الدكتور محمد فؤاد شكري

للأستاذ محمد محمود زيتون

«درج الكتاب من الإفرنج على اعتبار السنوسية إحدى الطرائق الصوفية فحسب، وانبرى الطليان من سنوات مضت يعملون لتعزيز هذا الاعتقاد بكل الوسائل، يحدوهم إلى ذلك الأمل في صرف أذهان سواد الناس عن التفكير في أصول السنوسية الحقة والتسليم بأنه ما دامت السنوسية طريقة من الطرق الصوفية فهي بعيدة كل البعد عن العناية بغير شؤون الدين، بل ولا يحق لها أن تعمل لمطالب الحياة والدنيا، ووجه الخطر في هذا الاعتقاد — إذا رسخ في الأذهان — ظاهر واضح، ذلك بأنه يحرم السنوسية — كنتيجة منطقية في النهاية — من التطلع إلى الحكم وتشييد صرح الدولة الإسلامية المتيدة، تلك الدولة التي جاهد الليبيون سنوات طويلة من أجل إرساء قواعدها في ليبيا، ومع ذلك فقد فات الطليان ومن حذا حذوهم أن الاسلام لا يعرف تفرقة بين شؤون الدين والدنيا، ولا يفصل بين العقيدة والدولة. وما كانت السنوسية في أدوار تاريخها الحافل (طريقة) تقصر اهتمامها على شؤون العبادة من غير نظر في أحوال الشعوب التي أخذ (الإخوان) السنوسيون على عاتقهم إرشادها حتى تتحرر من قيود الجهالة وتنعم بهدى المعرفة»

بهذه الفقرة يفتتح المؤلف تصديره لكتابه الذي نقدمه للقراء في هذه الفترة التي تلفت الأنظار إلى المملكة الليبية الناهضة كثمرة الدعوة السنوسية في هذا القطر الشقيق

وتقديم هذا الكتاب إنما هو تعريف بتاريخ النضال الذي اضطلع به هذا الشعب المسلم المجاهد الذي طرح عن كاهله نير العبودية في قوة وجلد، فما أوهنت عزائمه تقلبات الثمانين، ولا فتت من أعضاده فضائح الطليان ودسائس الألمان ومخازي الفرنسيين والإنجليز

وثمة ميزة أخرى لتقديم هذا السفر للقارئين في هذا الوقت: ألا وهي التنويه بحلقة من سلسلة الجهاد في سبيل «الجامعة الإسلامية» التي شغلت ولا تزال تشغل قادة الفكر الاسلامي في العصر الحديث، وانطوت صحائف، وما يزال هؤلاء القادة في مكان الصدارة من التاريخ المجيد، فضلا عن اعتزاز بلادهم بمآثرهم الاسلامية التي لا تنسى

أما ليبيا التي تعتز اليوم بنهضتها فإنها خضبت تراب بلادها بدماء الشهداء لا من أهلها فحسب؛ بل من المتطوعين من شتى الأقطار الاسلامية، كما أن كثيراً من المصريين بصفة خاصة كان لهم سهم وافر في هذا الجهاد الصادق، وما يزال الليبيون على ذكر من الأعمال التي قام بها عبد الرحمن عزام، وصالح حرب، وعزيز المصري، وعبد المنصف محمود، والمرحوم محمود لبيب، الذين خاضوا غمار المعارك الدموية، مؤمنين باليقظة الإسلامية، والوحدة العربية، والحرية والاستقلال، تحت ظلال السيوف، كما أن الأمير عمر طوسون — عليه رحمة الله — كان جم النشاط في جمع المال اللازم لحركة الجيران المناضلين عن دينهم وشرف الوطن

والدعوة السنوسية امتداد مستقيم الدعوة المحمدية التي جوهرها تنوير الأذهان وتحرير الأوطان، وقد اقتضت الظروف التي حاقت بالدول الإسلامية في القرن الماضي يقظة فكرية شاملة، ترسم أصحابها خطى النبي المصلح، فلما صدق العزم، تبين الرشد من الغي، واتضحت السبل والأساليب، ذلك بأن الاسلام مصحف ومنبر، سيف وكتاب، عبادة وقيادة، عقيدة وشريعة، رهبانية وإرهاب، وبالجملة دين ودولة، لهذا كانت السنوسية طريقة ودعوة وغزوة، وما زالت تمضي في سبيلها المرسوم من نظام اجتماعي إلى جمهورية فإمارة ثم ملكية

ولد زعيم السنوسية الأول السيد محمد بن علي السنوسي بالجزائر في سنة ١٧٨٧ ونشأ في بيئة علم وفضل، وتنقل في الأقطار الاسلامية مقتبسا من مناهل العلماء مناقشا وفاحصا، وقد صقل التصوف من عنفوان شبابه ولكنه لم يحد من نزعته

الصادقة إلى « إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف فى العالم الإسلامي للنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية » وأخذ يتزود من العلم ويمنحه للطالبين فى يسر ومضاء حتى ذاع صيته وأوجست منه خيفة شتى العناصر الجامدة فى فاس والقاهرة وسار « خطراً على الأمن العام » وألصقت به التهمة المأثورة « محاولة قلب نظام الحكم » فأصابه أذى كبير من الولاة والمشايخ ، وبانتقال الداعية الإسلامى الكبير إلى برقة بدأ « الإخوان » ينشئون الزوايا كنقط ارتكازالدعوةالسنوسية، وكانت «البيضاء» أم الزوايا بمثابة المركز العام لهذا النشاط الذى دوخ الاستعمار

على أن السنوسية لم تكن دعوة لتطهير الدين من البدع والخرافات فحسب ، بل تمدت هذا النطاق إلى تحرير الرقيق من أهل (واداى) فكان سلطانها محمد شريف يشترى هؤلاء الأرقاء ويعلمهم فى الزوايا ثم يعتقهم ويبعث بهم إلى أهليهم لينشروا الإسلام فى الزنوج والوثنيين :

وليبيا الواقعة حينذاك فى نطاق الخلافة العثمانية لم تنس حقيقة هذا الدين المتين فتمسكت بأهدابه ، وعندئذ رأى العثمانيون فى السنوسية عاملا من عوامل الدعاية لهم ، فاستعانوا بالسنوسى الكبير على بث روح الألفة بين الناس ، ونشر السلام بين ربوع البلاد ، وسار ولاتهم فى ركابه كما انتقل فى البلاد إلا أنهم مالبثوا أن قلبوا له ظهر المجن عندما بدأت السلطات العثمانية « تخشى من سلطان السيد فى الجهات التى أنشئت فيها الزوايا وكثر بها الاخوان والأتباع والمريدون » وعملوا على زعزعة مكانته فى نظر المسلمين حتى ناهضته العناصر الرجعية بالأزهر ، فلم يثنها ذلك عن المضى قدما

ولما توفى السنوسى الكبير سنة ١٨٥٩ انتقت الإمارة إلى ولده المهدى الذى أخذ على عاتقه إتمام ما بدأه أبوه فزاد عدد الزوايا وتوغل فى الصحراء الكبرى ، وأوجد بها مراكز لتعليم الرماية ، فاتهمته فرنسا وتركيا وإيطاليا بتعطيل مصالح الاستعمار والتعصب ضد المسيحية واغتيال المكتشفين للصحارى . وتوفى المهدى فى أول يونيو سنة ١٩٠٢ وخلفه الشاب السيد أحمد الشريف حفيد السنوسى الكبير فواصل الجهاد ضد الفرنسيين وصمد لهم على الرغم من تخلى العثمانيين عنه حتى أسلم القيادة إلى ابن أخيه الراشد إدريس

وفى سبتمبر سنة ١٩١١ قطعت إيطاليا علاقتها بتركيا ، فأغار الطليان على برقة وطرابلس . فبدأت السنوسية صفحة عريضة من نضالها الشعبى الذى دام ثلاثين عاماً ، وتحققت الجامعة الاسلامية بصفة عملية فى تدفق المؤن والذخائر والمال والرجال على ليبيا من مصر والسودان والعراق والشام وتركيا ، وقام صالح حرب بدور جرىء إذ انقلب على الانجليز ودافع عن مقدسات الشعب الليبي ، كما أبلى البطل الشهيد عمر المختار أحسن البلاء حتى وقع أسيرا فى أيدى الطليان الذين حاكموه صوريا وأعدموه رمياً بالرصاص

وما إن اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية حتى تقدم الجيش (الأنجلونوسى) لطرد الألمان والطليان من ليبيا وتأمين الجناح الأيسر لمصر ، وقد سجل الأمير إدريس السنوسى فى هذه الخطوة لنفسه ولبلاده شرف المجاهد والسياسى العامل على تحقيق استقلال بلاده

وإذ وضعت الحرب أوزارها دأب السنوسى على ضم الصفوف فبويع بالإمارة على الأقطار الليبية: برقة وطرابلس وفزان ، حتى نودى به ملكا على مملكة مستقلة لم يكف عزام عن سرد قضيتها على الرأى العام والسعى فى انضمامها إلى هيئة الأمم المتحدة وبالتالى إلى جاراتها أعضاء جامعة الدول العربية

هذه هى قصة السنوسية كما عرضها الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه القيم « السنوسية دين ودولة » الذى بذل فيه جهوداً جبارة فى سبيل التحقيق العلمى ، فجاء عمله مثلا طيبا للمنهج التاريخى الذى وضع دعائمه الأولى ابن خلدون . فقد تجنب السرد المضل . وعمد إلى التحليل والاستقراء ، وليس أدل على ذلك من فصل « الإمارة السنوسية » الذى خصصه لتفصيل دعائم هذه الدعوة وهى أصول دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية

ومما يجدر بنا الإشارة إليه — كآخر أصل سياسى للامارة السنوسية — « تلك الوصية التى تركها السيد رحمه الله بإسناد رئاسة الطريقة السنوسية إلى الأكبر الأرشد من الأسرة

السنوسية . ثم نظام البيعة » وما نعلم مطلقاً أن للبيعة فى الاسلام كتلك المراسيم التى ننكرها على الطقوسيين ، فهل من الاسلام أن البيعة تستتبع تقليد المبايع سيفاً ومنحه كتابا وإلباسه جردا ، وإعطاءه مسبحة ، وإقامة صلاة ومصالحة « فكانت هذه الصلاة وهذه المصالحة بمثابة المبايعة له بالإمارة من بعده ؟ وأجمع الإخوان و كبار السنوسية وشيوخها على قبول هـذه الإمارة فى حياة والده ثم بعد وفاته ، وعلى ذلك فكأنما جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدإ الوراثة والصلبية والعمل بمبدإ الشورى وحققت فى هذا النظام بعض شروط الإمارة » . وينزع المؤلف إلى منطق التبرير الذى نراه يباعد بينه وبين منطقه المنهجي إذ يقول « ومن المعروف أن الشورى كانت ركناً من أركانها ، والواقع أنه لم يكن هناك مناص من هذه (البيعة) الاسلامية باعتبارها أصلا من الأصول التى قام عليها (بيت) شريف ينتهى فى نسبه القرشي إلى الرسول الكريم » ... كذا ..

هذا ولا ننكر على المؤلف هذه الطاقة العلمية التى جملته — فى سبيل التحقيق والتحليل — يعتمد على أوثق المصادر ، ولا سيما الإيطالية بعد أن ترجمها له أصدقاؤه من الليبيين أنفسهم فذللوا أمامه كل عسير ، ثم هو يعتمد على رواية المعاصرين ممن أسهموا فى النهضة الليبية بأوفر سهم ، وصدق الشاعر « فما راء كمن سمعا » . والكتاب من منشورات دار الفكر العربى ، تلك الدار التى لا تفتأ تزود المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة ، وترمى دواماً إلى هدف رفيع ، وغاية نبيلة ، خدمة القضايا العربية والإسلامية متخيرة لذلك العقول الكبيرة والأقلام الرفيعة ، فصدر الكتاب فى ٤٢٤ صفحة من القطع الكبير والطبع الأنيق وثمنه خمسون قرشا

وإنه ليحق لكل دارس قومى أن يفخر باقتناء هذا السفر ، وإلى مثل هذا الجهاد التأليفى ندعو الباحثين فى قومياتنا ونهضاتنا آملين الظفر — فى آخر الأمر — بمؤلفات عريقة ، ودراسات دقيقة كهذا الكتاب

محمد محمود زيتون

توجيهات نبوية

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

للسيدة وداد سكاكيني

كانت هذه التوجيهات آخر مانشر الأستاذ الجليل عبد المتعال الصعيدى من علماء الأزهر المجددين وقد ضمنها أربعين حديثا محمديا صحيحة السند موثوقة المتن والنقل ، اختارها المؤلف ملاءمة لروح العصر وتوجيه أهله فى الدين والعلم والاجتماع . ولعلنا أحوج ما نكون فى هـذه الأيام إلى هذا التوجيه المحمدى الذى دعا إليه الرسول أو قام به ليكون قدوة تحتذى وسنة تتبع ، ففى كل عصر من العصور غمرة فساد وموجة طغيان ينهض لصد شرها ودرء عواقبها أهل الصلاح والإصلاح ممن آتاهم الله علما وفضلا

وهل كان شيء أجدى على الإنسانية الحيرى وأهدى فى ردها إلى سواء السبيل من أحاديث الرسول وتوجيهاته التى كان يبصر بها الناس ويقيهم الانحراف والعثار ، وقد جعلها لهم دستورا رافدا لتعاليم القرآن ومنيرا للأمم فى حياتها الاجتماعية

ولقد قسم المؤلف هذه الأحاديث الأربعين إلى فصول صغار شرح فيها الكلمات شرحاً لغويا وإعرابيا ، ثم بسط الغاية منها بسطا وافيا ، فكأنه يلقيها من على منبره فى كلية الأزهر التى أسندت إليه تدريس الحديث فى جملة عمله الجامعى

والأستاذ الصعيدى ذو دأب وتجديد فى التأليف بالأدب والدين ، لا لطلابه فحسب ، بل لجمهور المثقفين بمصر وبلاد العرب ، فهو إذا عرض دراساته الأدبية لم تجد كفايته وإتقانه مقصورين على هذه الدراسة ، إذ تراهما يتناولان جذور البحوث الدينية فتجيء مشبعة بالتحليل والاستقراء

ففى كتابه توجيهات نبوية أو محمدية يبلغ المدى فى فهم الحديث على الوجه الذى فهمه الصحابة فيه ، ويقرر خلال الدرس والبحث نواحى المقارنة والمطابقة دون استطراد ينحرف بالقارئ أوتفصيل يضيق به كما اتفق لكثير من الشروح الدينية فى زماننا .

البريد الأدبي

بريد الرسالة الأدبي :

تنظر طائفة من الناس إلى (البريد الأدبي) للرسالة على أنه هامش لا يجدر بهذا الاحتفال الذى يتمثل فى التعقيبات المختلفة ما بين نحوية وصرفية ولغوية إلى تصحيح رأى ، ونقد فكرة ، والواقع الذى لا مرية فيه أنه باب حافل خليق بكل عناية ، فأقل ما يقال عنه أنه حرب على الأخطاء الشائعة التى يخشى منها ومن مثيلاتها على اللغة العربية الفصحى التى نسمى جاهدين فى صيانتها والحفاظ عليها ، ولا أعتقد أن واحدا من المعقبين يقصد إلى التشهير بالمخطئ ، أو الزراية باللاحن ، ولا تمنيه (زبدة البحث وعصارة المقال) بمقدار ما يستهويه تسقط اللحن ، وتعقب الأخطاء

الرسالة مدرسة خالدة رصدت نفسهـــا منذ نشأتها إلى الذود عن لغتنا الحبيبة ، والدفاع عنها فى شتى النواحى والأبحاث. واللغة العربية فى محيطها مجموعة من الألفاظ السليمة القويمة ، ونحن نريد أن نقيم الحواجز بينها وبين الدخيل الذى يحسب منها وهو شوكة فى جنبها ، لا يفتأ يخزها فى مقال الكاتب ، وخطبة الخطيب ، وعلى لسان المتحدث . وإن تعجب فعجب أن نرى الأستاذ المنيق فى العدد (٩٧١) من الرسالة يخذل عن هذه المهمة ، لأن تصويب الأخطاء الشائعة الشائهة (كما يقول) « عسير الهضم على أفكار الأدباء والكتاب ؛ لأن الكلمة قد أخذت مدلولها بين المتكلمين ، بيد أن تصحيحها لا يضفى عليها معنى جديدا ، أو زيادة مستحدثة » . وأعتقد أن عسر الهضم ، ومشقة الإساغة وضيق الصدر ، كل أولئك يهون فى سبيل الحرص على سلامة اللغة وصونها من العبث . كان أولى أن يحمد للباحثين فى المعاجم صنعهم ، فهم يقدمون له ولغيره البيان الشافى فيما يرتاب فيه ، وليس ضئيلا أن يضيف إلى معلوماته فى كل عدد طائفة أخرى من الألفاظ المنخولة المنتقاة . . إننا نخشى أن تفتح الثغرة للدعى من الكلمات ، فلا يحجزه إلا أن يبارك الله (البريد الأدبي) وينسأ فى أجل « الرسالة » الحبيبة ، ويزايل الغضب من النقد البرئ صدور الناس ، فلا يضيق كاتب بتوجيه ، ولا ينكل قارئ عن بيان ، ولا يستنكف أستاذ عن تعلم ، وتلك هى أهداف الرسالة التى تجمع على الحق قلوب الأدباء ، وتشيد على المحبة صرح المجتمع ، وتدفع فى صراحة وقوة عن مجد العروبة

محمد محمد الأبشيهي

وأطرف ما وجدت فى هذه الأحاديث تحليـل المؤلف لحديث النهى عن سب الدهر ، ولعل الدهر لم يتحمل سبابا مثلما تحمل فى زماننا ، فالأفراد يلومونه ويرمونه بالجور والعدوان ، والجماعات تعزو إليه أسباب الفشل فى الحياة ، ولو جمعنا شعر العرب من امرئ القيس إلى شوقى لأتينا على شعر لا يحصى فى سب الدهر وملامته ، ناهيك ما عند المعرى من ذلك

والنادرة الجيـلة فى هذا الحديث — إن صح أن يكون فى الأحاديث نوادر — ما أورده المؤلف حفظه الله من تعليـل لهذا الحديث وهو حث الإنسان على الرضى بما يصيبه فى الدهر وعلى عدم الشكوى فيه من الدهر

وقد علل وجود الشكوى باعثا على اليـأس ، نعم إننا قد نيأس لأن اليأس مخلوق فى غرائزنا وشعورنا ، فالطفل الرضيع يمارس اليأس دون فكر ، والكبير يمارسه بفكر أو بفلسفة ، ولا مناص منه للانسان ليجد الرجاء ويفتح باب الأمل بمحاربة القنوط ، غير أن العلة فى النهى عن سب الدهر كالعلة فى النهى عن اليأس . ولليـــأس درجات أنكرها وأقصاها ما نهى عنه القرآن

كذلك نجد فى هذه التوجيهات المحمدية ضروبا من الأحاديث الملائمة لعصرنا وأهله ، فيها أدب وثقافة ، وفيها هداية ووقاية ، وقد وفق المؤلف باختيارها وشرحها إذ وضعها فى قنديله ، فشعت بنورها الجيل

وداد سكاكيني

اعتذار وشكر :

نشر بالعدد الماضى تحيتان للرسالة بمناسبة عامها الجديد حداهما من الحجاز والأخرى من العراق وقد اشتملتا على قدر عظيم من جميل الرأى وحسن الظن فى الرسالة وصاحبها . وقد تعودنا فى الماضى الطويل ألا ننشر شيئا مما يشبه ذلك . ولو أننا سننناه لكان من موجبات الذوق أن ننشر عشرات الرسائل التى تفضل بها علينا كرام القراء فى هذا الموضوع . لذلك نعتذر من نشر مانشر ومن طى مالم ينشر ، شاكرين للسادة الكتاب والشعراء حسن تقديرهم وفضل تشجيعهم

لمن هذا الشعر

جاء فى « نديم الخلفاء » من سلسلة اقرأ الصادر فى فبراير سنة ١٩٥٢ للأستاذ عبد الستار أحمد فراج قوله : شرب الحسين ابن الضحاك يوما عند إبراهيم بن المهدى فجرت بينهما ملاحاة فى أمر الدين والمذهب فدعا له إبراهيم بنطع وسيف وقد أخذ منه الشراب فانصرف وهو غضبان فكتب إليه إبراهيم يعتذر ويسأله أن يجيئه فكتب إليه الحسن : —

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيف
سقانى مثل ما يشر ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الخمر مع التنين فى الصيف

وأقول : قد قرأت كثيرا فى كتب التصوف وفيها هذه الأبيات بنصها منسوبة إلى الحسين بن منصور الحلاج الصوفى الشهير ، وفى ترجمته فى الطبقات الكبرى للامام الشعرانى : —

قال أبو العباس الرازى كان أخى خادما للحسين بن منصور قال فسمعته يقول لما كان الليلة التى وعد من الغد بقتله قلت ياسيدى أوصنى قال : عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك . فلما كان من الغد وأخرج للقتل قال: حسب الواحد إفراد الواحد له ثم خرج يتبختر فى قيده يقول :

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيف

ثم قال : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » ثم ما نطق بعد ذلك بشىء حتى فعل به ما فعل !

تباين عجيب وفرق شاسع بين صاحب خمرية فى وصف الخمر وهذا العالم الربانى الفريد

وإلى أن يبين لنا الأستاذ عبد الستار فراج مرجع روايته نرجئ الكلام فى هذا الموضوع

محمد منصور خضر

استفهام

فى العدد الممتاز من الرسالة (٩٦٦) لسنتها العشرين ، وفى مقال الأستاذ عبد القادر المغربى « من مشاهد الهجرة ما فيه روعة وعبرة » وفى الصفحة التاسعة ، وفى السطر الخامس والعشرين من العمود الأول . يذكر لنا فضيلة الأستاذ الجليل أن سن الرسول كان عند دخوله المدينة المنورة نحو الخمسين . إذ يقول « فإذا لحيته الشريفة سوداء ليس فيها شيب . مع أنه أكبر من أبى بكر بثلاث سنوات وكان النبى فى نحو الخمسين من عمره »

وأنا أعلم أن الكثرة الساحقة من الروايات تنص على أن الوحى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، وسنه أربعون ، وأنه أسر بالدعوة ثلاثا ، وجهر بها فى مكة عشرا ثم هاجر بعد ذلك ، فما الحكمة فى أن يذهب الأستاذ الجليل فى مقاله الرائع القيم هذا المذهب ؟

عبد الحافظ عبد المجيد كسبه



انتقام الاميرال

للقصصي الفرنسي أرنست دوديه

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر . وكانت الشمس حينذاك تضيف للغروب وتنحدر رويدا من شارف السماء ، إلى ما بين الأفق والماء . وقد سالت حولها أباطح الدم ، وارتسم على جبينها الكلال والأين. ويشرف القصر أيضا على الطريق الممتد إلى « برست » وعلى قارعة هذا الطريق تقم الميناء وقد أطلت من ورائها سوارى السفن ومداخنها مصبوغة بألوان الشفق الزاهى الجميل ... ومن نوافذ القصر الضيقة بان البحر كأنه بساط من سندس وإستبرق تجرى عليه السفن بقلاعها التى يهدهدها نسيم الأصيل فتتموج، وتداعبها الرياح الخفيفة فترجرج ... وتعلو من القصر المنيف قباب وأبراج شامخة فى الفضاء تتحدى الزوابع العاتية والعواصف الهوجاء .. وتحف أغصان الأشجار الالفاء الوارقة بجدران تحركها الرياح الموالى فتبدو كضفائر جافة خشنة لطيف امرأة تضرب فزعا فى الليل الدلهم ... وعندما غسق الليل وأجن السكون فى مسوحه الطاخى الأسحم ، أترعت السماء سحاب ثقال منشئات تحركها العواصف الهوج فى شدة وعنف . وعب عباب الرياح فهاجت الأمواج الصاخبة المزبدة فراحت تصطدم بصخرة القصر الهائلة وتنحسر عنها فيسمع لها زئير كزئير الأسد وهزيم كهزيم الرعد

فى تلك الأثناء كان الأميرال المركيز « دى بلك هيلوين » جالساً إلى نضد صغير وضع عليه بضع رسائل عفى على لونها الزمن فاصفر وحال ، وبضع زهور ذاوية ونوط قلادة وشريط من الحرير الأزرق ، وبجوار هذه الأشياء صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس المطعم بالعاج ، كان ولا ريب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة على النضد. وتجلت أمارات الحزن العميق على وجه الأميرال بينما لمت عيناه فجأة ببريق الغضب المسعور

وكان الأميرال رجلا رقيق البدن واهن العظم له وجه مغضن بارز العظام ، وعينان غائرتان قد انطفأ فيهما التألق والبريق ، ويدان معروقتان عاريتا الأشاجع . وعلى الجملة كان بدنه المنهوك قد ذبل بفعل المرض الذى يفتك به فتكا ذريعاً . ولقد فقد أميرال البحر العظيم قوة العزم التى كانت تسبح ثائرة فى دمه وتشع من عينيه ، وخفت فيه ذلك الصوت الجهورى المليء الذى كان يمزق العواصف ويطغى عليها . ولم تبق فيه ذرة من القوة التى طالما أعجب بها رجال أسطوله وبحارته من قبل . وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا ذلك الجسم المهدم الفانى ففارقتاه بعد إذ كانتا تفوران فيه فورانا حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج بفتوة الرجولة . واشتد به السقام حتى صيره هزيلا ناحلا . ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره إلا ليعالج هذه الجريمة النكراء التى اكتشف الآن فقط دليلها الحاسم ، وليرى مدى قدرته على الثأر وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث اعتاد أن يقضى فصل الشتاء من كل سنة ، يقول فيها كاتبها : « لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك ممعنة فى خيانتك ، دائبة على العبث بشرفك ؛ ولعلك وحدك الشخص الذى لا يعلم شيئاً عن علاقتها الآثمة بمساعدك السابق الكابتن « فوشيرون » . وإذا أردت على ما أقول شاهداً ودليلا فاذهب إلى مخدع المركيزة ، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت إحدى الصور المعلقة خزانة فى الحائط ، بها صندوق صغير . افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه ، فستنقشع الغشاوة عن عينيك ، وتتبين بوضوح ما غاب عن بصيرتك كل تلك السنين الواضى »

وعزا المركيز هذه السعاية إلى خادم مطرود . لذلك قضى سريعاً على ما أثاره الخطاب فى نفسه من شكوك وأوهام ، وفرك الرسالة فى يمناه وهم بتمزيقها لولا أن حاك الشك فى صدره فأرجع الكتاب يتلوه مرة أخرى ... وللمرة الأولى فى كل حياته مع زوجته تساوره الظنون والريب . وتحامل على نفسه وغادر مضجعه ، ثم راح يجر نفسه جرا ، وفى الحرز المبين فى الكتاب

ألقى أدلة الاتهام السود

وراح يتمثل ويعجب كيف مرت عليه هذه السنون الطوال وهو غارق فى لجج هـذا الوحل دون أن يدرى ... ها هـو ذا يمضى إلى مثواه الأخـير تكتنفه قرائن الجريمة الدنسة التى اكتشفها اليوم فقط هازئة سـاخرة ... فكيف إذن يتسنى له الثـأر لنفسه من هذين المجرمين قبل أن ينطفئ سراج حياته الخافت الضئيل

ياللخيانة والغدر ! أزوجه الذى شملها بحبه ووهب لها كل قلبه ؟ ! ومرؤوسه الذى أمطره بوابل من عنايته ، وغمره بفيض من صداقته .. ياللعار وياللدرن ! أنسى هـذا السافل المأفون ، هذا الجـاحد الكنود ... أنسى كيف كان يرعاه كابنه وزيادة ؟ وهـذه الشقية زوجه ؟ لا نكران أنه اقترن بهـا والفرق بين عمريهما جد كبير . إذ كانت فى العشرين وهـو فى الخمسين ... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضـا أنه انتشلها من وهدات اليتم والمسغبة ، وأضفى عليها لقبه المجيد التالد وقلبها فى تراثه الواسع وضمن لها الحماية والرعاية فى حياته ، وسيخلع عليهـا من تراثه درعا يقيهـا من بعده عدوان النـاس وغدرات الزمن . أبدا .. ما أرغمها امرؤ على الزواج منه ، بل كان هذا عن اختيار منهـا ورغبة ... ولم يكن يوما ليني عن تلبية رغبة لهـا مهما صعبت وشقت . فالصيف فى الريف الجميـل الساحر ، والشتاء فى أرفع فنـادق باريس الفواخر . أو إذا شـاءت فى قصره المظلم فى « نيس » . فى كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب والصواحب ، وفى كل جمع كان يعلو بهـا اسم زوجها إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سـائر الفتيات والعقائل . وبينا كان يثق فى وفائهـا وإخلاصها ويعجب بجمالها وفتنتها ويتيه لسحرها وأنوثتها ، إذا هى تخونه وهو لا يدرى

لقد خدم بلاده أربعين سنة سويا . حارب فى أفريقيا وفى المكسيك ، وحاز أرفع القـلائد والأوسمة ، وجلب المجد والفخار لابنه ... ثم ماذا بعد كل تلك الحيـاة الحافلة بجلائل الأعمـال وطيب المـآثر ؟ عار تجلبه عليه هذه المخلوقة الشقية وهو من الموت على شفا جرف هار

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب ، بل جرته إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله فيمضى إلى رمسه مخبولا . ابنه « باتريك » زهرة آماله وعمره الثانى ... ابنه هو ، أم ابن غريمه فوشيرون ؟ باتريك . لقد شب ونما فى قصره المتيد حيث تقضى أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو ليعانقه ويتملى من رؤيته . إنه يبدو قويا كغصن شامخ فتى ، ويتجلى الزهو والـكبرياء فى نظراته ، ويبدو الصلف والخيـلاء فى لفتاته ، وتنطلق ملامح وجهه بقوة العزم وشدة المراس . ياله من إله صغير من آلهة القوة والجمال ! خير خلف لأشرف سلف . ومما زاد الرجل تعلقا بابنه وحبا له أنه ورث عنه قوة العزم وصلابة الرأى وثبات الجنان

والآن تقضى هذه الجريمة التى اقترفتها زوجه على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك الإعجاب الذى يحمله الرجل لوحيده

وأمسك الرجل التمس رأسه الثائر بين كفيه كأنه يمنعه من الانفجار ، وسرت حمى الغضب فى دمه فتمتم وهو فى تلك الحال من اليأس والضعف والمرض

— سأنتقم لنفسى ... سوف أثأر لشرفى ...

ولـكن كيف ؟ أيقتل ذينك اللذين لوثا اسمه ولطخا شرفه وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ المديدة تفصلهما عنه ، فلا هـو بمستطيع أن يبلغهما ، ولا هما ببالغيه قبـل أن يموت ... وأوغل فى سبل الانتقام الكثيرة المتشعبة ... وأغطش الليل ولما يهتد فكره إلى سـبيل يبلغه طلبته فيشفى غليله ... واستلقى على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتنز نارا تكاد تأتى على بقايا جسمه المحطم

وعندما انصدع عامود الفجر أقبل طبيب الطوافة « المتيد » التى اعتلاها علم الأميرال طويلا، ليعود رئيسه العليل؛ وذعر لدى رؤيته وجه رئيسه الشاحب الممتقع، ودهش لتقدم المرض السريع فى يوم وليلة ... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال الأميرال :

— قل إنى انتهيت يا دكتور

لم يضع الأمل بعد يا سيدى ... إنك فى حال سيئة ولكن ...

— لا تراوغنى : لقد تحديت الموت مراراً ، ولا أود أن يأخذنى هذه المرة على حين غرة . قل الحق إنى آمرك ...

فظل الطبيب صامتاً لا ينبس دقيقتين قال بعدهما :

— سيختارك الله هـذا المساء على الأكثر ياسـيدى إن لم تحدث معجزة

وتلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات ... قال :

— حسن ... وستعودنى طبيباً مرة أخرى ... أليس كذلك؟

— بالتأكيد ياسيدى الأميرال. الا تحب أن تخطر سيدتى المركيزة؟

— وأى جدوى فى ذلك وهى فى نيس. ثم إنى لا أود أن أحملها الحزن فجأة. إنها تعلم أنى مريض، وستعرف على كل حال أنها ترملت، ولكن يجب أن يكون هذا بعد أن أموت

فانسحب الطبيب

وقابله باتريك لدى الباب فقال له :

كيف أبى ؟

فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه عيناه، فأسرع الصبي نحو أبيه بقلب جزوع. فنهض الأميرال بجهد جهيد على مرفقه وقال:

— ادن منى يا بنى. إن لى حديثاً معك ... إنك فى الثانية عشرة من عمرك ياباتريك، ولكنى مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلا

ولم يأخذ منهما الحديث طويلا. ولكن حينما انتهى ومضت عينا الصبي ببريق من نار، وتثلج بدنه حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه إلى بدنه. وفى أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة، وما تحمل من متاعب وأعباء

وفى السنة التى تلت ذلك، أى بعد موت الأميرال بعشرة أشهر أو تقل راح الناس يلغطون بقرب زواج أرملته من الشاب الوسيم القسيم فوشيرون. تناقلوا ذلك فيما بينهم فى غمز ولمز كأنما كان ذلك عين ما يتوقعون. ويبدو أن العاشقين قد آثرا بعد علاقتهما الدنسة الآثمة أن يرتبطا بعلاقة يقرها العرف والدين

ووصل الكابتن فوشيرون ذات صباح إلى القصر العتيد حيث تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها نحبه

وعندما متع النهار وارتفعت الشمس دخل باتريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوء به عمره الصغير. قال لها :

— أحقا أنك تمدين المدة للزواج من الكابتن فوشيرون يا أماه ؟

فأجابته بصوت مضطرب

— من أبلغك هذا ؟

لم ينبس الغلام. فاستطردت المرأة

— على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه

— إنى لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل الكابتن فوشيرون مكان أبى

لا تقبل! ماذا تقصد بهذا الهراء؟ ثم أشارت إلى الباب ماضية واستأنفت

— أخرج من هنا حالا ياسيدى

فانصرف من لدنها إلى غرفته، ثم غادرها بعد بضع دقائق إلى غرفة فوشيرون واقتحمها دون استئذان واضماً إحدى يديه فى جيب بنطلونه

وكان فوشيرون يحلق لحيته أمام مرآة، فاستدار نحو باتريك وقال!

— إن اللياقة تقضى بدق الباب قبل الدخول

إنه بيتى يا سيدى، ومن حقى أن أدخل أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان، ثم إن لى حديثاً معك

— لك حديث معى؟ تكلم

— إنى أعلم سبب وجودك هنا. وإن ما تبغيه لا يمكن أن يتم. ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود أبدا. إننى أمنعك من الزواج بأمى

— إنك مجنون ولا ريب أيها الطفل

— من الخير لك أن تطيعنى

— فشحب وجه فوشيرون من شدة الغضب. وومضت عيناه من فرط الغيظ. وقال :

— أخرج أيها الغرير وإلا عركت أذنيك. واتجه نحو باتريك رافعاً يده فتراجع الغلام عنه ثمة وأخرج من جيبه شيئاً كان يخفيه، مسدساً ورفع به يده. ضغط الزناد، فانطلق

فانشق صدر فوشيرون عن صرخة هائلة دوت فى سكون القصر العميق. وترنح ثم سقط جثة هامدة وقد اخترقت الرصاصة جبينه ...

وأقبلت المركيزة على عجل ورأت كل شىء ... ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها وجردته من سلاحه

— ماذا فعلت أيها الشقى ؟

وتركها باتريك تأخذ منه السلاح ثم قال : وقد رآها ترتمى على الجثة تبكيها وتندبها!

— لقد أنبأنى أبى قبيل وفاته أن هذا الرجل عدو لى وعدو لك، وأوصانى بحمايتك من شره وغدره حتى ولو أدت الحال إلى قتله. وقد نفذت وصية أبى

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن فوشيرون مات منتحراً

م ٠ ع